سنوات الغروب

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/١١٧٩٣

بطاقة فهرسة

سليمان ، مصطفى

سنوات الغروب: رواية/ مصطفى سليمان، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٢١٢ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٢-١٤٧-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

أسامة علام

التدقيق اللغوي

محمد جلال الأزهري

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

سنوات الغروب

رواية

مصطفى سليمان

شجرة العائلة(بعد الطوفان)

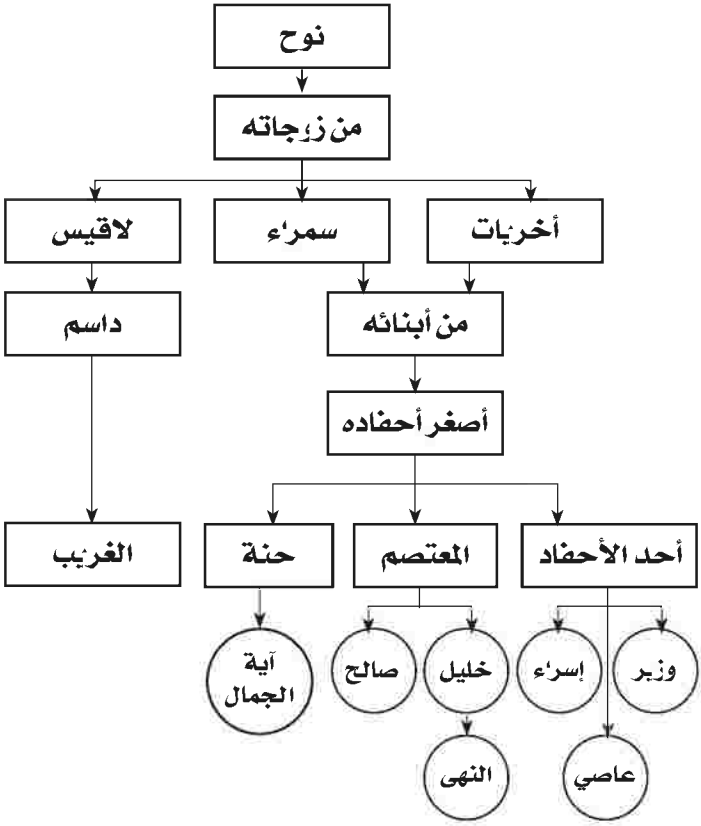

إلى أحفادي

أكتب إليكم على جدار الحياة

أكتب إليكم و أنتم في رحم الغيب

احذروا أخاكم

فأنا لاأملك لكم شيئا

و لم أترك لكم سوى الصحف

نوح

عاصي

(١)

يغرس الليل أنيابه السوداء في لحم النهار، النهار ينسحب تدريجياً خلف الجبل، خلف الجبل دماء تكسوالأفق، الشمس تودع القلعة، القلعة قاعدة أمام الجبل، تتمسح في صدره العاري، القلعة أوصدها عبيد، بعد مذبحة الذهب الملعون، أسير متخفيًا بين الحقول، الزرع يداعب ثيابي، اختفى الجسر المعلق، الصدأ يرقد على السلاسل الحديدية الممتدة على جانبيه، ثغور السهام تراكم عليها تراب السنين، الجرذان تسكن فتحات الماء المغلي، البرجان ممتدان في الفضاء، يتهامسان في السَحر بما يجري أمامهما.

ماذا يقولان؟

إلى أي مدى يبصران ؟

منذ تمددهما في فضاء الجزيرة إلى الآن ماذا شاهدا؟ ماذا سمعا؟

يسمعان في كل ليلة نقيق الضفادع و صرير الجنادب، نباح كلاب الطريق وربما يحملان رسائل الليل إلى النهار، و رسائل النهار إلى الليل، أعلم أن في أحدهما حجرة الولي؛ الحجرة موصدة منذ اختفاءه، حارسان أمام البوابة الأمامية، يغطان في النوم فلا يجرؤ أحد على التسلل إلى القلعة. وزير واصل نبوتجية الحراسة الممتدة، من أيام الولي إلى هذه اللحظة، أتسلل بين المقابر، مستترا بظلمة الليل الهشة، أعتلي السور، أهبط بحذر إلى الجانب الآخر، نسمات باردة تداعب ثوبي، ألتقط أنفاسي، لا شيء هنا سوى الصمت يقطعه صرير الفئران من مدة إلى أخرى.

من يصدق؛ هنا مهد طفولتنا، هنا كنا نجري ونلعب، ستة من الصغار، من تبقوا من أحفاد نوح. كنا نختبئ في حجرات الخزين، بين الأجولة والجرار الفخارية، في المطبخ نضع أيدينا على جدرانه المصبوغة بالسواد، نجري من حجرة لأخرى، نجري من قن الدجاج إلى حظائر الخيل والأغنام، رنين ضحكاتنا يسكن الأركان، خطواتنا تقبل الدرج، أناملنا تحتض مقابض الأبواب، أجسادنا تبلل الأسرة؛ أين كل هذا الآن؟ أدور مع الجدار الداخلي، مازالت النافذة بلا قفل، أعرفها كما تعرفني، أدفعها برفق، أنينها ترحيباً أم بكاءً على الأيام التي مضت، تطأ قدمي القاعة الرئيسية، يدور في رأسي ربما تبكي النافذة ما سيأتي؟ لا..لا ..ربما تزغرد فرحاً لعرسي القادم، تبحث أصابعي عن القنديل الزيتي، أفلح في إشعال فتيله المغموس في الزيت،على

هدى الضوء، أبصربصمات الزمن الترابية على الأرض، أفتش عن مدخل السرداب السري، هناك أسفل السلم، خلف تمثال نصفي.

***

خلف التمثال النصفي اختبأت صغيراً و نحن نلعب الغميضة، عن دون عمد يحرك جسدي المتكور يدا صغيرة، أرتجف من صوتها، صوتها مارد استيقظ بعد غفوة من الزمن، أخرج من مخبأي لأرى باب السرداب، أرجع إلى اليد، أحركها فيرجع الجدار إلى سيرته الأولى، أحركها للمرة الثالثة ونفسي تحدثني ماذا في نهاية هذا السرداب؟ ينشق الجدارعن فرجة تكفي لدخول فرد واحد، يندفع منه هواء بارد، ورائحة قبور، أخطو بحذر في الظلام، أسير في سرداب متعرج، منخفض السقف؛ أتوقف أمام باب، الباب حجري قاعد هناك في نهاية السرداب، خيوط العناكب، أمزقها برفق، أزيل التراب عن كلمات لا أفهمها، أرتجف من صوت خلفي، يزداد خوفي لرؤية عبيد يحمل قنديلاً، يقول:

- ماذا تفعل؟.

***

الآن أقرأ الحروف على ضوء سراج - ربما - نفس السراج

(لا تفتح هذا الباب.. لا تعصِ أمر الولي..

اللعنة على من يفعل ذلك.. اللعنة على من يفعل ذلك).

***

يومها جرجرنى عبيد من يدى إلى الخارج، لطمني على وجهي، عيناه متقدتان، أصابعه السوداء تفرك أذنى، أتأمل وجهه الأسود، أنفه الغليظ، رأسه الصلعاء، عينيه الضيقتين، القرط الفضى المعلق فى إحدى أذنيه، يردف

– إياك والدخول إلى هنا مرة أخرى.

أفلت من يده، كلماته تطاردني

– لن أتردد في قتلك.

عبيد لايكذب، صليل سيفه يحذرني، يرتجف بدني.

***

هأنذا أقرأ الكلمات مرة أخرى، ألتفت خلفي، لا أحد، أعرف أن عبيد مات منذ «سنين، لماذا ألتفت؟ أضحك ساخرًا من خوفي، رائحة التراب تحذرني، بيوت العناكب تحذرني، لكن الصوت النائم في أذني، يدفعني للأمام هامساً

«من أجلها..من أجلها ستحرره».

أجفف عرقي بكم قميصي الذي غزلته أختي (إسراء) وحبيبتي (آية).

***

حبيبتي آية، التي جاءت أمها تحملها، أمها ترفل في ثوب من الحزن و الإعياء، لغياب الولي، بين يديها ابنتها؛ يلتقط (عبيد) الرضيعة من يدها، منزعجًا ناديتُ:

«عمتي..عمتي حنة»

عمتي كانت تخدم الولي، تكنس حجرته، تعد طعامه من التمر والخبز المقدد و قليلاً من الماء، تدثره عندما يغفو، هكذا نذرتْ؛ نذرت خدمة الولي لثلاثة أيام، ثلاثة أيام نذرت ألا تكلم أنسيا، جزاءً لما فعله معها، فتحدث بعض الرجال بالسوء، فجاءتْ إلينا في ليلة حالكة، تمتطي بغلته، مشرقة الوجه، متدثرة بعباءته وقالت "الولي يُقرئكم السلام" ضحكتْ وجوه الصادقين وزغردت النساء، ليلتها لم أصدق أنها عمتي العجوز، أمست ابنة العشرين.

هاهي ذي تتمدد على الفراش، تئن من المرض بجوارها آية .

آية قبس من الولي، عيناها في خضرة الحقول، ترفل معنا في جلباب الطفولة، أتأملها ونحن نلعب الغميضة، يقطر شهد العشق في قلبي، وجهها الضحوك، فمها وردي متوهج.

تسلقتُ يومًا شجرةً على حافة النهر، رأيتها تنزع ثوبها لأرى جسداً كالرمح مزينًا بنهدين صغيرين، تسبح في النهر، تمنيتُ لو كنت ساحراً فأتحول إلى ماء لأدور؛ حول تفاصيل الجسد، أو أتحول إلى ورقة شجر تنام بين النهدين، يا ألله!

***

من أجلها تبحث أصابعي عن المزلاج، بين الجدار والباب مساحة ليدي، أعالج المفتاح، أعصر خشبه المتورم من مرور السنين، قطرات العرق تتساقط عن وجهي، القلب يخفق بشدة، أعلق السراج على أحد الجدران،

بكل ما أوتيت من قوة أزحزح الباب عن مكانه، تتساقط الأتربة، يتصاعد الغبار، أسعل بشدة، أحاول مرة وراء أخرى، أفلح بعد عناء شديد في خَلق مساحة من الفراغ، أسند ظهري للجدار، أكور جسدي في وضع جنيني بين الباب والجدار، بكل قوتي أدفعه، أصرخ لأشد من أزر نفسي، يتحرك شيئاً فشيئا، يتساقط قليل من الرمال، يرتفع الغبار، أغمض عيني للحظات، أمر إلى الداخل، رائحة بغيضة، ظلام حالك، دقائق وتعتاد عيناي الظلمة، أخطو للداخل في حذر، يغمر المكان ضوء فضي يزداد كلما توغلت في قلب الكهف، أسير إلى المنتصف، عين ماء تمتلئ تدريجياً كلما اقتربت منها، تغيض تدريجيًا كلما ابتعدت عنها، في نهاية الكهف جزء معتم، أدور حول عين الماء، أركع، أرتشف؛ يثلج صدري.

صوت سلاسل، ألتفت صوب الصوت، الصوت قاعد هناك في نهاية الحجرة، شخص جالس على مقعد من الصخر، يغمره الضوء الفضي، أقترب محدقاً بحذر في ثيابه، ثيابه يكسوها تراب السنين، رائحته منفرة، منكس الرأس، كثيف الشعر، مقيد اليدين والقدمين والعنق بأغلال وأصفاد، السلاسل طويلة مثبتة في الجدران، عظيم الرأس، الشعر كأنه ضرب بالرمال، قصير القامة، ضخم البدن. أتردد في الاقتراب، أسأل نفسي «أمازال على قيد الحياة أم فارقها منذ حين؟» أصعد الدرج المؤدي إلى المقعد الحجري، يرفع الجالس رأسه ببطء صدئ، تتساقط بعض ذرات التراب، صوته يخمش السكون :

– هفاف؟ أشم رائحتك

كلمات حجرية قالها في خضوع أمامي، أجفل، أتمالك نفسي لأجيب:

–لا.

يفتح عينيه، جاحظتان شديدتا السواد، يحدق في، يتناثر قليل من التراب، يحدثني بصوت زجاجي.

– مرحبًا يا سيدي.

يردف:

– أتخشاني؟

– لا.

يحرك وجهه يمينا ويسارً منفضا عن رأسه رماد السنين، وجه شاحب اللون، يرتدي عباءة سوداء متربة، يزرعينيه:

– أنت عاصي؟

أهز رأسي بالإيجاب، يردف:

– لماذا خالفت أمر الولي؟

– الولي مات منذ سنين.

– **و عبيد؟**

- مات منذ عام.

يصرخ بغيظ ، فيرتج الكون، يهز الأصفاد مرات ومرات، أتراجع خوفاً، يصمت الغضب، الرجل منكس الرأس، يسألني بحزن:

ـ كيف مات؟

- كنا في وسط الحقول، نحصد القمح. أسفل شجرة عظيمة قاعد عبيد، ممسكا منسأته، يجمع بعض العصي من الأرض بيده الأخرى، يناديا، نترك ما في أيدينا، ونسرع صوبه، نلتف حوله، يكسر واحدة ثم ثانية ثم ثالثة ثم رابعة، يكسر سبعة عصي، نجمع له سبعة أخرى، يحاول كسرها فلا يقدر؛ قال جملته الأخيرة:

- لقد كبرت.

ألقاها بطول يده، وصمت، في عودتنا إلى سنابل القمح، تحطمت العصي تحت أقدامنا، عدنا إلى الحصاد، بين الحين والحين، ننظر صوبه مازالت منسأته في يده، العبيد و بعض أهل البر الشرقي يساعدوننا، قبل الغروب نسور تحلق في دائرة، بعض الحيوانات تسير في حزن بيننا، تسير كأن عبيد يناديها، فأصابنا العجب، لماذا تركت الجبل؟ دوائر متداخلة من طيور كثيرة، تملأ السماء، الكل يتجه صوب عبيد، نسرع إليه، منسأته تنزلق من يديه ببطء، يحط هدهد على فرع قريب من الأرض، يسرع صالح مردداً:

«يا مُعلم عبيد، معلمي.. معلمي» غرابان يحطان على الأرض، يركع أمامه، يحتضن رأسه باكيا، عينا المعلم نصف مغمضتين، يشير صوب الغابة، يعوي ذئب، يركع الكل، بشر، وحيوانات، وطيور.

يرفع بصره إلى السماء:

– سيدي الولي ، أهلا بك وبمن معك.

لم نصدق أن عبيد مات، حملناه إلى مدفنه، دموعنا لم تتوقف، الحزن يلفنا ببردته الفضفاضة، تولى أخي وزير الحكم.و....

يقاطعني مكرراً سؤاله، «لماذا خالفت أمر الولي؟» فأجيب:

– أحب آية.

– مَنْ لا يحب قبساً من الولي.

– أريد زواجها، يقولون إنك ساحر عظيم.

– من قال؟

– عبيد؛ قال: إن الجبل يفصل الحيوانات عن أهل الجزيرة، والقلعة شيدناها لنتقي شر الساحر.

يبتسم، يحرك يده في الهواء، أفهم ما يقصد، أبحث عن حجر لأحطم به القيود، أصول وأجول في الكهف، أعثر على حجر، أضرب به الأغلال مرات متتالية، أستغرق بعض الوقت في تحريره منها، ينتفض واقفاً، يمزق ثوبه، يجري إلى بحيرة الماء، يقفز فيها، يسبح مستلذاً بالماء، يغطس، أرتجف

خوفا من موته غرقًا، يخرج يعبئ الهواء في صدر تيبس من الرقود في جسد بين الموت والحياة، يضحك ويضحك، يغمض عينيه سعيدًا، يشير بيده:

– خلف المقعد صندوق خشبي به ثيابي، أحضرها.

يرتدي عباءة سوداء، تنام القذارة أسفل أظفاره الطويلة، يُخفي شعره الكثيف أسفل قلنسوة العباءة، يضع يده على كتفي، يحدق في وجهي:

– احمل السراج واتبعني.

نسير في الدهليز، من الكهف النائم أسفل الجبل إلى باحة القلعة التي في أركانها بيوت العنكبوت، السجادة الترابية عليها آثار أقدامي، فلا أثر لخطواته، يستوقفني قوله:

– من يملك الذهب يملك النساء.

– عندي قليل منه.

– سآتيك بالكثير.

نخرج من الباب الخلفي للقلعة، نسير في محاذاة الجبل إلى البحر، ندفع قارب أحد الصيادين، يجدف السجين إلى مكان يعرفه، الموج يهز القارب، الهواء خفيفاً يداعب السراج غير مبال بظلمة الليل أو الموج المتراقص، يتوقف عن التجديف قائلاً:

– هنا الذهب، أنت تريده.

أنزع ثيابي، يربط حبلاً حول خصري.

- كلما شددت الحبل مرتين انحني والتقط ما بين قدميك.

يتملكني هاجس أن هذا الساحر سيتركني ويرحل، أو يضربني بالمجداف على رأسي ويذهب، أغوص إلى القاع، تتعثر أصابعي ببعض الأحجار، الملساء، إنها الذهب، أخرج الكثير منه على مرات متتالية، يحصي الساحر القطع متسائلا:

- كم قطعة في بيتك؟

- سبع قطع.

- أنت الآن تمتلك ثلاثين قطعة من ذهب؛ من ذهب وليس من فضة، ثلاثين قطعة من ذهب.

يضحك و يضحك

- اعذرني؛ فأنا لم أضحك منذ سنين، منذ سنين لم أضحك، منذ سنين وأنا سجين.

يسكت ويجدف إلى البر، قبل أن أنطق، يقول:

- لا تقلق، سأتدبر أمري، أسكن بيتًا مهجوراً من بيوت البر الشرقي مع قليل من صيد السمك تسير الحياة، ستجدني وقتما تريد، اذهب الآن، الشمس أوشكت على الشروق، وأنا كنت سجين الكهف.

يتكئ على عصا التقطها من الأرض ويغيب عن بصري.

أنظر لجوال الذهب الراقد بين قدمي؛ أتساءل: أهذا الذهب الملعون ؟ كيف عرف بأمره وهو سجين؟ لا يعنيني إلا آية الجمال.

(٢)

قبل غروب الشمس، أرتدي ثوبا أبيض فضفاضًا، وسروالًا من نفس اللون، أعطر جسدي، أضع الذهب في صندوق واحد. ثلاثون قطعة ذهبية مختلفة الأحجام، أصغرها في حجم تمرة، وأكبرها في حجم ثمرة البطيخ، يحمله أحد العبيد على كتفه، يتبعه آخر ليحمل عنه الصندوق، كلما أصاب صاحبه التعب، يترك نعلي أثره على المدق الترابي المؤدي إلى بيت (آية)، أطرق الباب، أشير لأحد العبدين بفتح الصندوق، من خلف الباب الموارب تطل حبيبتي، أشير إلى الصندوق.

- صداقك.

- من أين لك هذا؟

- مالي.

- أخوك حاكم الجزيرة لا يملك نصفه.

- هذا صداقك.

تغض طرفها.

- تصحبك السلامة.

برفق اختفت، أدق الباب بعنف.

- أحبك يا آية..أحبك.

فلا مجيب، أركل الصندوق بقدمي، يسرع العبدان في جمع الذهب، أحدهم يخفي قطعة بين ثيابه، ألطمه ثم أركله؛ مكررًا.

- أتسرقني.. أتسرقني؟

أطعنه بلا تردد، يسقط مضرجا في دمائه، يحمل الآخر الصندوق إلى البيت، أزعق:

- جره إن لم تقدر على حمله.

أتوقف عن السير، شيخ جالس على حجر، بصوته الزجاجي قال:

- لا ترفض المرأة صداقًا من ذهب إلا إذا كان قلبها عاشقًا.

- تعشق من؟

- السؤال صحيح، ولكن للشخص الخطأ.

إنه الساحر، أستدير لأتوجه إلى بيتها، يتكئ على عصاه ليقف، يأمرني:

- اجلس هنا وراقب الطريق وستعرف، ثم تدبر أمرك.

يمر الوقت بطيئا، العبيد يحملون صاحبهم على محفة إلى المقابر بجوار القلعة، أمام جزء من الجبل؛ الجبل شاهق الارتفاع، تغيب قمته في ضباب ثلجي، يذوب الثلج ويسير في أخاديد تتجمع عند شلال عظيم، عنده منبع النهر في جنوب الجزيرة، يتبختر النهر في سيره إلى الشمال. في البر الغربي أرض الحاكم من آل نوح، في البر الشرقي عامة الناس، غلبني النوم حتى الثلث الأخير من الليل، الطرق خالية، السكون يجرحه صوت الجنادب ونباح الكلاب، ونقيق الضفادع، وطنين البعوض؛ شخص قادم من بعيد ممتطياً حماره، إنه صالح، أختبئ خلف أقرب شجرة، أمامه شَرود صغير، يعرج في سيره إلى بيتها، تخرج قبل أن يطرق الباب، تحمل سراجا في يدها، إذًا كانت تنتظره طوال الليل، تمسح على الحمل، يواصل سيره إلى بيته، تحب صالح.. تحب صالح، ابتلع السواد صالحًا ودابته، أسرع إليها، أطرق الباب بعنف صارخا:

- لن ينالك غيري.. لن ينالك غيري.

لا أتوقف عن الطرق، يتهدم الباب، أنفث غضبي، على ضوء المشاعل والقناديل، وجهها يسكنه الفزع، تحجز بيدها العبدين والجارية خلفها، أتركهم في ذهول، أجرجر غضبي خلفي وأرحل إلى بيتي، أخي (وزير) ينتظر أوبتي، أركل كل ما أقابله، أحطم الأقداح، أقذف بكل شيء في كل اتجاه، يصرخ (وزير):

- ألم أقل لك ألا تذهب؟

- أحبها..أحبها.

- هي لا تحبك..لا تحبك.

أصعد لحجرتي، أقعد مهمومًا، أتأمل صندوق الذهب، (إسراء) تتوارى خوفا مني، أمس ونحن نتناول الغداء قلت لوزير:

- سأتقدم لآية

توقف عن مضغ الطعام، ابتسامة على وجه إسراء؛ تبارك الخبر، يضرب طاولة الطعام.

- لا تذهب..لا تذهب.

غادر الحجرة إلى حديقة البيت، يغرق في نحت تمثاله، يجرح يده، يرمي الإزميل على الأرض، يغادر المكان، هل كان على علم بحب صالح وآية؟ غداً سيعرف الجميع أنها رفضتني، الجواري تقول للعبيد، والعبيد يخبرون السائرين إلى المدافن، السائرون يحملون ما جرى إلى البر الشرقي، في البر الشرقي يمزقون الخبر مثلما يمزقون أرغفتهم المصنوعة من الشعير، ثم يمضغونها بأفواههم.

(٣)

ليتك أيتها الطفولة تعودين؛ رنين الضحكات، اللعب بين الحقول، ركوب الحمير، صوت السواقي، خرير الماء، الجري بين قطعان الخراف والماعز، المشي في الأسواق خلف عبيد، عبيد صحبنا إلى الجبل ونحن على أبواب الشباب، نأكل أوراق الشجر ونضحك، نسمع الحكايات ونضحك، ننظر إلى الرماديين ونرتد إليه؛ فيلوذ بالصمت ويقول كلمته الوحيدة "اثبتوا" من أي قوم جاء ذلك الأسود، يحمل في قلبه وصايا «الولي» يحرسنا من العامة، الذين قالوا إن الولي قُتل، وقال آخرون إنه ركب البحر لجزيرة أخرى؛ لينشر العدل فيها تاركا لنا تحذيراته السبع..

إياك والشرك بالله..

إياك والزنا..

إياك والقتل..

إياك والسحر..

إياك وأكل الربا..

إياك وأكل مال اليتيم..

إياك وقذف المحصنات..

وترك صحف النجاة.. قال آخرون

- ننتظره.

فقال عبيد:

- ترك لكم ما إن تمسكتم به نجوتم وإن تركتموه هلكتم.

قتلوا آباءنا وأمهاتنا وأغلب الصغار، انتقم عبيد لموت آل نوح، وجاءت مذبحة الذهب، فلم يبق لنا إلا (عُبيد) الذي حكم الجزيرة وسكن القلعة، بقينا فيها بضع سنين، حتى جاء الرماديون، ليبقوا نصف عام وشهر.

يا ألله؛ لماذا لا تحبني آية مثلما أحبها؟ ألستُ أشدهم بأساً؟! البر الشرقي يعرف أني هنا فيخافون العبور إلا لدفن موتاهم، يخافونني، ماذا يصنع وزير دوني؟

(٤)

كل ليلة يطرق صالح بابها، كل ليلة يقرأ وجهها، لماذا تبكي؟ نعم تبكي، أراها تمسح بأناملها الدقيقة دموعها، الليلة أحاذيه في السير، هو على الطريق، وأنا بين الزرع، تتعثر قدمي بفك حمار، ألتقطه، ألتقط تفاحة من شجرتها، أواصل السير، أخرج إلى صالح، يجفل لرؤيتي، أقدم له الثمرة.

– تفاحة، لن تجد في الجزيرة واحدة بطعمها.

ينحني ليلتقطها، أسقطه من فوق دابته، بضربة واحدة تنفجر صرخته، ينتفض لها الليل والنائمون، يكسو الدم وجهه، أجري في الحقل، فك الحمار مازال في يدي، أرميه؛ يداي ملطختان بالدماء، أمسحهما في ثيابي، يبللني العرق، أواصل الجرى، أرتطم بالساحر، يسألني:

– أقتلته؟

أمسح جبيني، بكم قميصي، أهز رأسي بالإيجاب، صرخة من بعيد..

«قُتل صالح.. قُتل صالح» تضاء المشاعل، يتفرق الناس للبحث عن القاتل، صوت رجل «رأيت القاتل يهرب إلى الحقول» صوت آخر «قتله بهذا» ثالث «فك حمار». الأول «ابحثوا عنه»، «من قتل يقتل» أطلب من السجين المساعدة.

– ساعدني أيها الشيخ.. ساعدني يا..

– اسمي داسم..تعال.

يمسك بيدي، يحتضنني بقوة، يزعق:

– أمسكت بالقاتل..أمسكت بالقاتل.

شيخ بهذه القوة! يعصرني بين ذراعيه، يهتدي الناس على صوته، أجاهد للفكاك منه، يشحذ قوته لمقاومتي، يتركني فجأة.

– سيقبضون عليك وتقتل.

أدفعه فيقع على الأرض ضاحكاً، أجري مذعوراً، أرتطم برجل يحمل مشعلًا، ألكزه فيقع مع مشعله، النار تأكل الزرع، التوهج يمزق جزءًا من ستار الليل، تتحول النار إلى وحوش تطاردني، وحوش صفراء وحمراء وسوداء، الدخان يخنقني، أضرب كل من يقترب مني، أنتصر على عفاريت الليل، «وزير» أخي يقترب بدرعه، يحرقني الدرع الملتهب، أصرخ، أبكي، أناديك.

– أين أنت يا آية.. أين أنت يا آية.. أين أنت يا آية؟

آية

(١)

أستلذُ سكون الليل الذي يردد كلمات صالح، تلك الكلمات التي قالها منذ قليل، عند باب الدار:

- طابت ليلتك.

- لمّ تغيرتَ؟

يلوذ بالصمت لفترة وجيزة، زفر زفرة قوية، وقال:

- يومًا ما سأخبركِ.

- أبعيدٌ هذا اليوم؟

يأوي إلى الصمت للحظات،تتخللها أصوات كائنات الليل، يردف:

- غدًا.

غداً سيخبرني، سأحمل سره بين ضلوعي، سيخبرني لنعود كما كنا،رفيقان، حبيبان، كاتبان لصحف النجاة، ينقصنا عبيد ليباركنا بابتساماته، ويظللنا بصوته، يحرسنا بخطوه الهادئ فوق الطريق، حتما سنعود. أصعد الدرج

إلى الطابق العلوي، السراج يلقي ظلي على الجدار، أستبدل ثوبي، أتمدد على فراشي، بين حلمي و يقظتي يتأرجح صالح، أنامل النوم تداعب جفوني بخفة، يسترخي جسدي، أتمنى أن يكون قاربًا لغدي، خدرٌ لذيذ، صرخة، أنتفضُ فزعة، الصرخة شجرة انتزعتْ من قلب صاحبها انتزاعًا، أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، أفتح نافذتي، لا شيء أمامي سوى السواد، سواد الليلة غريب كأني فتحت نافذتي على عالم آخر، أمسى للسكون طنين موحش، عبد يجري، اثنان، ثلاثة، ضوء مشعل، حروف نارية تنصب في أذني «قُتل صالح.. قتل صالح» أرتدي جلبابي، أجري حاسرة الرأس، حافية القدمين، أنظر صوب العبيد، خطواتي مرتعشة، دابة صالح بجوارها أحدهم ممسكًا بمشعل، آخرون منحنون على جسد مسجى، تتعثر قدمي بتفاحة، أشم عطر صالح، أرتجف من أخمص قدمي لمنبت شعري، حبيبي مضرج في دمائه، أصرخ وأصرخ وأصرخ، أركع بجواره، أحتضن رأسه، الدماء ساخنة «من قتلك يا صالح؟» أيقظهم سؤالي من صدمتهم، انطلقوا يبحثون عن القاتل، دموعي تزداد كأنها نهر أغرق فيه، نهر من دموعي ودماء صالح، كيس القماش معلق في رقبته، فيه خصلات شعري، رائحة حريق، ألتفت صوب الزرع، النار تحرق الحقل، تنفلت آهات، صرخات، تضيء النار ما حولي، أتبارك ما يجري؟ أم تمنحني الوداع الأخير لوجه مَن أحب، الوجه مخضبا بالدماء، ابتلت لحيته الصفراء بدموعي، أقبل أصابعه، أرفعها لخدي، ربما تجفف دموعي، وربما تَبعثُ دموعي الروحَ في جسده، العبيد تزعق.

- عاصي هو القاتل.

- النار تحيط به من كل صوب.

- يقتل كل من يقترب منه.

كلمات تحرق مسمعي، أغرق في مصيبتي، تأتي إسراء بجسد مرتجف، وجهها مبلل بالعرق، في عينيها مزيج من الحزن والفرح، تحاول إبعادي عن حبيبي، أصرخ فيها:

- لا.

البكاء عاصف، البكاء لا شطآن له، أختنق منه، يسمح لي بالتقاط بعض أنفاسي ليغمرني من جديد، بين مده وجزره أستسلم، يأبى موتي، يستمتع بعذابي، أفيق على صوت مرتعش:

- آية.. آية.

من خلف ستائر دموعي، عاصي يجلس بجانبي، النار نالت من ثيابه وجسده، رائحة الحريق تفوح منه، في صوته براءة طفولتنا، يمد أصبعه ليمسح دموعي.

- لا تبكي.. لا تبكي.

- صا..لح.. ما..ت.

يمسك يد صالح، يقبلها ثم يردف ببراءة.

- مَنْ قتله؟

أصرخ فيه.

- اتركني.

يسحب يده مرتعداً، أكرر:

- اتركني..اتركني.. اتركني.

الحروف شذرات نارية تطارده؛ فيبتعد زاحفاً على يديه ورجليه، تفسح الأبدانُ طريقاً لخروجه، يجري بعيداً، إن كان للموت علامات من شيب الشعر..انحناء الظهر.. ضعف البصر، فللحزن علامات من شحوب الوجه..انطفاء البهجة؛ أغيب عن الوعي.

(٢)

الآن حبيبي محمول على أعناق العبيد، في كفن أبيض، كيس القماش مازال في موضعه، تركوه خارج الكفن لأعلم أنه سيدفن معه، يتقدم خليل المشيعين، وابن عمه «وزير»، خلفهما العبيد ورجال البر الشرقي، بثيابهم البالية وأجسادهم النحيفة، بجواري إسراء وعاصي، في الخلف النساء متشحات بالسواد، يطلقن الصراخ، يضعن التراب على رؤوسهن، أعرف لماذا تبكين أيتها الأرامل والعجائز، أعرف لماذا الدموع في عيون اليتامى، لن يطرق صالح أبوابكم بعد اليوم، لن يلعب مع الصغار في طرقاتكم المتربة، لن يترك في سلال الخوص الثمار والطعام، لن يترك جرار العسل، أو حفنات الشعير، مررتُ ليلاً بباب جياع وأمهم تهدهدهم «لا تخافوا من الجوع فصالح يطرق أبواب المساكين» كيف سولت لهم أنفسهم دفنه تحت التراب؟ تدفنون فارسكم!

***

فارسكم، الذي أطاع (عبيد) حين وقف أعلى الصخرة ونحن فوق الجبل قائلاً:

- أيها الناس مات الرماديون، ألا تشمون رائحة الموت،

من سيهبط منكم ليأتي بالخبر اليقين؟

من سيهبط منكم؟

من سيهبط منكم سيكون له قطعة أرض في البر الغربي

من سيهبط منكم سيملك أرض البر الغربي

من سيهبط منكم سيملك البر الغربي ويكون حاكماً على الجزيرة.

يقاطعه صالح.

- أنا سأهبط.

أشهق فزعة عليه، إسراء تهز رأسها رافضة نزوله إلى السفح، يرتدي ثياب الحرب، يمتشق حسامه، كنانة السهام على ظهره، القوس في يده، أزعق.

- لا تنزل.

- نفد الزاد والماء.

- وأكلنا أوراق الشجر والجيف.

- الوحوش تشاركنا الجبل، إذا اشتد بها الجوع ستهاجمنا، ما لنا بد.

الصمت يبسط جناحيه علينا، يقبل جبيني، يهبط بين الصخور بحذر والشمس تغرب على مهل، يحكي (عبيد) عما رآه كل منا منذ بضعة شهور، يحكي إلى اليل، إلى الجبل،إلى النسمات. يحكي ليقتل القلق في صدره، يحكي ليخفف وطء الجوع في البطون، يحكي ليقتل الخوف.

صوته ينساب رقيقاً دافئًا:

«جاء الرماديون من عمق البحر كأنهم طوفان قادم من بعيد، طوفان بلون الطاعون، تسبقهم رائحتهم ، تسبقهم أصواتهم ، أصواتهم تسحق كل أنفاس الحياة، تراجع الصيادون بمراكبهم؛ إلى الشاطئ، هرباً من القادمين، محذرين ذويهم، تركوا شباكهم ومراكبهم، يفزعون من ذلك الصوت الهادر، يظللون بأيديهم ليروا أي شيء هذا، في قلوبهم فزع من القادمين، يتفرقون هلعاً، هنا وهناك، منهم مَن احتمى في بيته ومنهم من ركب النهر إلى الجانب الآخر، جاءوني، بوجوه شاحبة، قال أوسطهم:

– مات الولي، وأنت تلميذه.

أفكر قليلاً

– اصعدوا الجبل.

– والقلعة؟

– القلعة ترفع عنكم بلاء.. لا تحملوا إلا صغاركم.

هناك دائما من يخالفك الرأي، ونحن نصعد نراقب القادمين يزأرون بقوة، يبثون الرعب في القلوب، يذبحون الرجال والنساء وحتى الصغار، يهدمون البيوت ويحرقونها، قصار القامة كانوا، عرايا الأبدان كانوا، نساءً ورجالا كانوا، يتدفقون كأن لا نهاية لهم، شربوا النهر حتى جف، يسيرون في طينه، يسيرون إلى البر الغربي، يأكلون زرعه، يأكلون الماشية وهي على قوائمها، حتى تخر بين أيديهم فلا يبقى منها شيء، يطاردون من يجدونه، لا شيء حولهم، يملأون الجزيرة، يسيرون صوب القلعة، يدورون حولها ثم يرجعون خلف الجبل؛ غابة بها ما شاء الله من الحيوانات الضارية، الأجمات منتشرة فيها، الغابة يفصلنا عنها الجبل فلا يطأها الإنسان، ولا يدخل حيوان أرض الإنسان، يدخلها الرماديون يتصارعون مع وحوشها، تفزع الحيوانات الباقية إلى الجبل، أمست الأرض طينًا يابسًا ملونا بالدماء، يخطو فوقها الرماديون، يتصايحون في النهار، يدورون حول القلعة والجبل مرة مع شروق الشمس ومرة قبل الغروب، لم يهدهم الله إلى صعود الجبل أو تسور القلاع، سبعة أشهر ونحن في الجبل، نأكل ما بين الصخورمن عشب، نصطادالأرانب البرية و الفئران، نصنع أفخاخاً للقطط، نأكل كل شيء لنهزم الجوع، مازال الرماديون في السفح، في الليل يشعلون النار ويتحدثون بلغة لا نفهمها ثم يتعاشرون، لا يسترهم شيء عن بعضهم البعض، منذ سبعة أيام توقفوا عن دورانهم الصباحي، نظروا إلى السماء، أرجحوا رماحهم، في لحظة واحدة، أطلقوها صوب السماء؛ أزيزها أفزعنا، تراجعنا خوفًا أن تصيبنا، كأنها سرب من طيور تتجه لعش بعيد، ظلت أعناقنا مشرئبة صوب الرماح

حتى اختفت تماما، بعد منتصف النهار بقليل، صاح صبي بيننا «انظروا» كانت الرماح عائدة إلينا بقوة، استلقينا على الأرض فالرماح لا تَعقلْ، ربما تصيبنا، أحاط الزوج بزوجه، الأم بصغارها، مرت الرماح من حول الجبل، انغرست في الأرض. الرماديون يمسحون ما عليها من دماء، يتصايحون، يتعانقون، يتواصلون في رقصهم، يعاشرون بعضهم بعضًا، يتساقطون رويدا رويدا، يقل عدد الذين يدورون حول الجبل، في صباح اليوم لم يدر أحد حول الجبل أو القلعة، اشتد نتنهم، لذا ناديت فيكم أن يهبط أحدكم».

لم يعد صالح مع الغروب، لم يعد مع الشروق، تخضبت وجنتاي بالدموع، يزحف الوقت بدقائقه الشائكة، لا يكترث بقلقي.

مع شروق اليوم الثالث صعد عبيد إلى صخرته، نادى رجلا آخر يهبط إلى السفح، استعد «وزير» للنزول؛ تبكي أخته إسراء، مع أول خطوة إلى الأرض ظهر صالح، انطلق الصغار بين الخيام المتناثرة في الجبل «عاد الفارس.. عاد الفارس» يرددونها بثيابهم الرثة ووجوههم الشاحبة، يزفون الخبر إلى الخيام البالية، إلى الأجساد النحيلة، إلى الوجوه المسودة من الجوع، نهبط الجبل في نصف نهار، الرماديون هياكل عظمية، بمجرد أن تلمسها تتحول إلى تراب أسود عفن الرائحة، يتقيأ البعض، تمطر السماء مطرًا حارقاً، ندخل القلعة لنحتمي من هذا المطر الذي استمر ثلاث ليال، يخرج الرجال لاصطياد ما يسد الرمق، نخرج الماء من البئر يخطب عبيد فينا، ثم يدعو صالح ليتولى حكم الجزيرة فيسأل صالح عن الفارس الثاني، الذي استعد للنزول فأجاب

الناس «وزير» تنازل عن حكم الجزيرة لوزير، تصفو السماء، رائحة الصبح المبلل بالندى يثلج الصدور، الأرض زلقة، تطرب آذاننا لصوت النهر، النهر يتدفق من جديد، أسير بجوار صالح ورغبة في صدري أن يضمني إليه، فارع القد، لم يهزمه الجوع، عيناه ضاحكتان يحدثني.

– رأيت أحدهم والدود ينخر فيه، شعره أسود فيه حمرة، مستدير الوجه كالترس.

أغلق عبيد القلعة، عين لها حرسا، شيدنا بيتا لكل عائلة، يرسل صالح مع كل صباح حمامة بيضاء إلى بيتي، أنتظرها في برج الحمام، تلتقط الحَب من يدي، تهدل سعيدة، أفتشها لا تحمل أي رسالة، أعرف أنها منه، قلب المحب صادق، أربط في ساقها خصلة من شعري، أرسلها إليه قبل الغروب، يحتفظ بالخصلات في كيس من القماش معلق في رقبته، مازال في موضعه حتى مات، سألته بنبرة لوم.

– أرسل لك خصلاتي، ولا ترسل لي شيئاً!؟

– بل أرسل لك.

تساءلتُ؛ ماذا يرسل؟ يدور السؤال في رأسي حتى الصبح، فتشت الحمامة لا شيء معها، حملتها لأضمها إليَّ، يا ربي، يعطرها بعطره.. عطره.

«كم أحبك يا صالح».

قبل موته بسبعة أيام، نعم سبعة أيام، لم تأتِ الحمامة إلى البرج، وصمتَ عن الكلام معي لماذا؟ إلى الآن لا أعرف، جاء الغد دون إجابة عن سؤالي، جاء دون صالح، أصبح عطره ذكرى في صدري.

***

مات صالح، دفنتموه بأيديكم، وضعتم بجوار جسده قليلا من الملح ورغيف خبز ورحلتم، رحلتم إلى زوجاتكم وعيالكم، رحلتم لتمضغوا طعامكم و..

أزرع بجوار القبر قليلاً من الصبار، أخاطبه:

- سآتيك كل صباح.

ألملم حزني لأعود، يصحبني عاصي، يصفق ويزغرد، يسألني عن صالح ثم يسألني:

- أين آية؟ أين أنت يا آية؟ أين أنت يا آية؟

يغيب كما تغيب الشمس، أسير وحيدة، حافية القدمين، حاسرة الرأس.

(٣)

– صباح الخير يا صالح، أوحشتك مثلما أوحشتني، لا تخف عليَّ، سأحيا على عشقك، أعتق "وزير" العبيد؛ فهبطوا إلى البر الشرقي وتزوجوا.. الآن يرافقه رجل لا أحبه، يرتدي عباءة سوداء، السماء أمطرت من قبل الفجر، المطر خفيف الآن، رأيت قوس قزح يزين السماء وأنا قادمة إليك.

***

قوس قزح رأيناه صغارًا، وقفنا في وسط الحقول، عبيد يشير إليه:

– قوس المطر.. الألوان من الخارج للداخل، الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلي، البنفسجي، نسميه أحيانا بقوس قزح.

سألته إسراء:

– ماذا تعني قزح؟

– هناك من يقول إنه اسم الملك الموكل بالسحاب وآخرون يقولون اسم الشيطان، لا أحد يعرف.

***

يرافقني عاصي كل صباح؛ يوزع الفاكهة والأرغفة الصغيرة على المساكين الذين يصطفون على جانبي الطريق، يروي الصبار، يجلس عند قدمي أمشط شعره، أحيانًا أجدله في ضفيرة واحدة، النار جَمَّدت أصابع يده، أطفأت إحدى عينيه.. مع كل هذا تتهافت عليه النساء، يذهب إلى الواحدة منهن، يسألها:

– أين آية؟

تهمس في أذنه، فيتبعها، ويختفيان معاً، في الحقول، في المقابر، خلف شجرة جميز، أو شجرة توت، هدير صوته، تأوهات متقطعة يفرغ ما في صلبه، أحيانا يصفعهن صارخا:

– لست آية.

يجري في الحقول بلا سروال مناديًا:

– أين أنت يا آية؟ أين أنت يا آية؟

لا أصدق أنه أحبني كل هذا الحب، أحيانا أشعر بالذنب لأني رفضتُ زواجه، لا أنسى أنه جاءني بصندوق مملوء بالذهب صداقا لي، رفضته

لأمرين؛ أهمهما: أني أحبك وثانياً: لا أعرف من أين جاء بكل هذا ؟ الجزيرة ليس بها كل هذا، إلا الذهب الملعون، الذي أغرقه عبيد في البحر، بعد مجزرة البر الشرقي، الحب يا صالح يقي الإنسان من الزلل، أما ما فعله عاصي هو حب ضعيف.

أتعرف من زارني أمس؟ ابن عمنا وزير، كنت أستظل أسفل شجرة الجميز، هاربة من حَرالبيت، كان في صحبة عاصي، سألني:

– أمازلت ترتدين السواد؟

ألوذ بالصمت وعيناي تسألانه :

– لماذا جئتَ به؟

تجيب عيناه:

– هذا ما فعلته بأخي.

يقرأ في عيني.

– سواد أيامي من صنع يديه.

عيناي تقرآنِ ما في رأسه «جئتُ لأراكِ».

أمسكُ بيد عاصي قائلة:

– رائحتك كريهة، من يحب آية؟

يرفع إصبعه، أردف:

- آية تحب أن تكون نظيفًا.

أشير لأحد العبيد وجارية يصحبان عاصي إلى حمام البيت، ينسحب وزير مغتاظًا، أشرد في عالمي، يخرجُ عاصي إليّ نظيف البدن والثوب، يجلس أمامي على سجادة صغيرة، تحضر جارية مشطًا وسلة فاكهة، أمشط شعره الطويل أجدله في ضفيرة والجارية تلاعبه، يقضم ثمار الفاكهة ويضحك.

- سآتيك كل صباح.

(٤)

يوقظني هديل حمامة؛ إنها حمامة صالح، من أين جاءت؟! من يعرف سرنا؟ أحملها بين يدي، في ساقها رسالة، أقرؤها: «تسللي الآن إلى القلعة بسرعة.. بسرعة» جاريتي مازالت تكنس الأرض، أناديها لترافقني:

– هجير، تعالي معي.

الساقي يملأ الزير والقلل، يضع في كل واحدة عود ريحان، يثرثر مع العبدين حول ذلك الرجل صاحب العباءة السوداء:

– يقولون إنه يتحدث إلى البهائم والشجر، قالوا إنه جاء في الليل وسكن أحد البيوت المهجورة وركب البحر مع بعضهم، قال لهم: سأشير إلى أماكن السمك ولي نصف ما تصطادون. وافقوا ساخرين، حيثما يشير يخرج السمك، ثم اختفى ليراه الذاهبون إلى المقابر في صحبة وزير، يقولون أنقذه من الموت و... و... و...

نختصر الطريق من بين الحقول، ندور حول المقابر، الباب الخلفي للقلعة موارب، ندلف في حذر، نصعد الدرج، في مدخل القلعة تقف إسراء، مزيج من ألق الحب و وهج القلق في عينيها .

– خليل خرج مع بعض رجاله ليتصدوا للحاكم.. يقول أخي: إن أربعين يوما مرت على وفاة صالح، ولابد أن تتزوجي واحدا منهما، رفض خليل الأمر، أرسل إليك يحذرك، وهو يعلم أن وزير سيسير إليك لتختاري بينهما، عند عودتهم سيقطع خليل الطريق ليمهلنا بعضاً من الوقت لهروبك، أعددت لك الطعام والماء و...

– إلى أين؟

قلتها ورأسي يفكر ثم أردفت:

– لم نسمع عن شخص رحل من هنا وعاد، منذ الطوفان الكبير لم يرحل أحد من الجزيرة وعاد، لم يأتنا من وراء البحر إلا كل شر، أنسيتِ الرماديين، أنسيتِ حكايات الناس عن الغريب الذي جاء بعد السنوات العجاف؟

– ما العمل؟

سألتني إسراء، يسكن غضبي، أمسح وجهي، الرحيل يعني الموت، عند الموت سألتقي بصالح، إذاً أرحل، أنا والماء، ولا شيء غير الماء، سينال مني التعب، تفترسني الأسماك، أغرق إلى القاع وبعدها ألتقي بصالح.

– سأرحل.

- ابقِ، سيحارب خليل ورجاله من أجلك.

- لن تراق الدماء بسببي.

أحمل صرة الطعام وزق الماء، أعانق إسراء وجاريتي هجير، أنفلت منهما هربا من لحظة الوداع، خوفا من التردد، سأسير إلى الجبل، ثم بمحاذاته حتى البحر. هناك عشرات المراكب، سأدفع أحدها إلى البحر.

أنا الآن والبحر والسماء، البحر يساوي الموت، سأبحر إلى الموت، بعد الموت السماء. ربما نلتقي يا صالح، إن لم تسعنا الأرض، سوف تسعنا السماء، سوف تسعنا السماء.

(٥)

أخطو الخطوة الأولى إلى الجبل، أعرف دروبه، الخوف يتملكني، أبسط ذراعي للموت، أناديه فلا يجيب، «أيها الموت لم لا تطرق بابي؟»

***

الجبل مكثنا فيه سبعة شهور، نفتش بين دروبه وصخوره عن زرع أخضر، أو أرنب شارد أو غزال هائم؛ لنطرد الجوع المطل علينا في بكاء الصغار، وجفاف الأمهات، وشحوب العجائز، لا شيء حولي إلا الهواء الرطب، يحمل الرجال على نقالة من جذعي شجر، إلى أعلى الجبل، ربما تنال منه الوحوش والنسور، نئن في صمت، تذوب ضحكات الصغار، تخمد الحركة في الأجساد، الأمل لهيب يتراقص أمام رياح الجوع والعطش. أبتسم، فصوت عبيد يطن الآن في أذني وأنا أكتب ما يمليه علينا.

– جزيرتنا يحدها من الجنوب غابة كثيفة بها الكثير من الأجمات، تعيش فيها الحيوانات الضارية وغيرها، يفصلنا عنها الجبل الذي يرتفع إلى أعلى

من الشرق إلى الغرب، قمته في منتصف المسافة، تغيب هذه القمة في ضباب كثيف وثلوج؛ رغم ارتفاع حرارة الجو في الصيف، فالماء ينساب في جداول صغيرة تتجمع في بحيرتين؛ الأولى: منبع نهرنا الذي يتجه شمالاً ليصب في البحر، ولهذا النهر قصة بطلها سيدنا الولي والغريب الذي جاء من وراء البحر، والفرع الآخر:من النهر يروي الغابة. الجميل أن الوحوش لم تهاجم الإنسان بعد زيارة سيدنا الولي لها والسير في دروبها، ولهذه الزيارة قصة لم يحن وقتها بعد، نرجع لنهرنا الذي لا يقل عرضه عن مأتين وسبعين مترا ولا يزيد على خمسمائة متر، و...

– تعبت يا سيدي.

يضحك

– ابنة الولي تعبتْ؛ فلنسترح

يربت على كتفي، يأمر صالح بحفظ الأوراق على وجه مكتب عبيد، بعد عودته، يخرج من جيبه قليلًا من التمر، يقسمه بيننا أنا وصالح، ثم نهبط إلى بيوتنا.

***

أسيرعلى حواف الجبل، بعد الغروب بقليل أركب البحر، لا رفيق لي إلا الدموع والذكريات وقليل من الزاد.

***

حول النار نرهف السمع لصوت عبيد، ترهف النار و الليل للصوت المندى بالمسك.

«تحتضر حنة، عيناها تتأملان السماء من الباب المفتوح، نور يحيط بنا، نخجل أن نسألها،أين اختفى الولي؟ الرجال يتصايحون من يكفل آية؟ ترفع ذراعها، نصيخ السمع لصوتها الهاديء، نكتب أسماءنا على قطع من الخشب نلقي القطع في النهر، تغوص قطعة وراء قطعة إلا قطعتي، في اليوم التالي نكرر ما فعلناه، فلا تبقى إلا قطعتي، يطلبون يوما ثالثاً ؛ أرضخ لطلبهم، أحمل قطعتي إلى حنة، أقترب من فراشها، أحمل الصغيرة، تنام بين يدي، يختفي النور، تصرخ الصغيرة، أذرف الدمع لا لرحيل حنة بل ليقيني باختفاء الولي».

***

أتساءل:

- أيُختصَر العمرُ في كلمات؟

فلا مجيب، أنادي على الموت فلا يأتي، ربما جلس هناك تحت شجرة الأعمار، يرمقني بأسف، يُغمض عينيه قائلاً:

- لم تسقط ورقتك بعد.

جاء عدد من الصباحات والمساءات، لا شيء يقطع هدير البحر إلا ذكرياتي مع صالح.

***

ندون ما يمليه علينا عبيد من الصحف، أسأله عن أبي

فيجيب:

- رجلٌ به من شيم الأنبياء وخصال الصالحين، بين الطول والقصر، لونه بين الحمرة والبياض، عباءته تميل إلى الصفرة، عيناه تشرقان بالسكينة، فتخشى أن تكذب، دخل على مجلسه رجلٌ فزع:

- سيدي الولي، الذئاب اختطفت صغيري وليس لي غيره.

قام من مجلسه، أغمض عينيه منادياً على شيء غائب

- توقفوا.. سآتي إليكم

أشار إلى بعض أصحابه بمغادرة القلعة والناس منهمكون في بنائها، ناداني قائلاً:

- يا عبيد اترك ما في يدك واتبعني.

أمسك بيدي، كأنني صغير يسير بجوار أبيه، لا، أقصد أن في قلبي سعادة لا يصفها قلم، كنت سعيدًا في خجل. تراجعت بضع خطوات ليتقدمنا، فمن أنا لكي تسير قدمي بحذاء قدم الولي، سرنا نحن ـ الاثنى عشر رجلا وأم الصغير وامرأتين ـ خلف الولي صوب الغابة، يتقدمنا أبو الصغير، لأول مرة يدخل بشر إلى الغابة، قبل (الولي)، كانت الضواري تهاجم القرى وتفترس من تشاء وترجع إلى غابتها، في الغابة مئات من الضواري، تشم

رائحة الإنسان فور دخوله، نسير بضعة أمتار في ممر صخري صغير أسفل الجبل، بعد الممر الغابة بألوانها الزاهية، أصبحنا أمام قطيع من الذئاب بينها الصغير، نتسمر، يتقدمنا الولي متكئا على عصاه، الذئاب تبتلع عواءها؛ يهشها

ـ أحسنتم بطاعتي

تفسح لخطواته بانكسار، يردف:

– اذهبوا الآن

ينحني ليلتقط الصغير، يحمله على ساعده، تهرع الأم لالتقاط صغيرها، تغمره بالقبلات، تنحني لتقبل يد الولي، يسحب يده، نسير خلفه من شمال الغابة إلى جنوبها، هناك رأيت الأسود والنمور والذئاب والضباع والقرود والغوريلات وقطيع الجاموس الأسود والحمار الوحشي والغزلان والزراف والحيات الملتفة على الأغصان، أفراس النهر؛ فجأة اندفع تمساح بسرعة نحونا، أصابنا الفزع، أشار له الولي فتوقف ثم جلس وفتح فمه، يهبط طائر صغير ليلتقط رزقاً من بين أسنانه، وصلنا إلى البحر، كان في انتظارنا قاربان عند الشاطئ، نظر الولي إلى السماء، تجمعت الحيوانات كأن هاتفًا يناديها، لم أر ولن أرى تجمعاً للحيوانات مثل ذلك اليوم، قال الولي:

– الجبل بينكم وبين البشر من تجاوزه هلك.. الجبل بينكم..الجبل بينكم.

نظر إليّ نظرة طويلة، ثم التفت إلى الحيوانات، وأردف

ـ ستهبطون الجبل مرة واحدة، ستهبطون مودعين، وتعودون.

تفرقت الحيوانات، منذ ذلك اليوم لم تعبر الحيوانات الجبل إلينا، ولم يعبر منا أحد إلى الغابة، عدنا إلى القلعة مع فجر اليوم التالي.

***

استيقظ من حرارة الشمس، من خلفي ومن أمامي وأسفل مني ماء، يعلو الموج ويهبط، أفزع، أغمض عيني، تصفعني موجة، ترفعني أخرى، أبكي وأبكي، صعب أن أعيش حياةً أرفضها، الأمواج تلعب بالقارب، عند حافة الموت تجذبني الحياة وتراقصني، أستلقي على المركب ربما يأتي الموت أصرخ

«أيها الموت لمّ لا تطرق بابي؟»

أكررها حتى يجف لساني.

أبي

أيها الولي

يا من جئت بالخير.. قتلت الغريب.. سجنت الساحر.. ارشدت الصيادين لرزقهم.. نجيتنا من الذهب الملعون.

لمن تتركني..أنا قبس منك..قبس يبهر الناظرين.

***

قال عبيد في سيرك مع أصحابك رأيتم عجوزاً من آل نوح تجاوزتْ الثمانين، جالسة على حجر أمام دارها، تسألها عما تريد؛ فتجيب بفم خال من الأسنان، أنك تحجب الشمس عنها، تخطو خطوتين جهة اليمين، تكرر السؤال، تجيب:

– منك فلا شيء و الله أعلم بما في صدري.

تغمض عينيك، قائلاً:

– العيال ينادونك عجوز عقيم..عجوز عقيم.

تكفكف دموعها بيديها المعروقتين، تقعد أمامها، تضع يدك على جبينها وتدعو الله فترتد صغيرة بصيرة، تقبل ثوبه وتتبعه إلى القلعة، تكنس الحجرة وتعد له الطعام، تأتي بقرب الماء من النهر، يتحدث بعض الرجال بالسوء

– رجل و امرأة ؛فمن ثالثهما؟

يأتيها الخبر على لسان إحدى الزائرات، يأتي من رحلته، ينظر لوجها الباكي، يركبها دابته و يخلع عليها بردته.

***

الآن أحتاج إلى بردتك

لماذا هجرتَ الناس؟

لماذا تركتَ ابنتك؟

أنا ابنتك

أشتاق إليك

بعدد دموعي؛ أبتهل

بعدد خفقات قلبي؛ أتوسل

لا تتركني لضعفي

لا تتركني ليأسي

صوت بين البرق والرعد

ما أنا إلا بشر، اصبري بنيتي اصبري

***

أفتح عيني في إعياء شديد أرى وجوهًا غريبة، رهط من الرجال ذوي شعور ناعمة وعيون ضيقة، أنا على سطح سفينة كبيرة، يحيطون بي، في وجوههم إجلال لي، لا أدري لماذا؟ يصحبني أحدهم إلى المطبخ في قاع السفينة، أعد لهم الطعام، أغسل الثياب، يساعدونني في نقل الصحاف الخشبية إلى مائدة الطعام، يفسحون لي مكاناً بينهم، يتحدث أكبرهم سنا، رجل تجاوز الثمانين، فلا أعي ما يقول، نتحدث بالإشارة، أفهم أنهم يقدسون المرأة التي يهبها البحر، يظنون أنني منحة من السماء، ضحكتُ من قلبي، منذ زمن لم أضحك، قال كبيرهم إن سفينتهم تلاعب بها الموج في ليل عاصف، بعد العاصفة بيومين شاهدوا قاربي، هبط هو ليكتشف مَن في القارب، أدلوا الحبال فربطني من أسفل أبطي ورفعوني إلى السفينة.

تتماثل الأيام ، يغنون في الليل والنهار، يتناوبون العمل فيما بينهم،في الليل هدير الموج، **يراودني وسواس، أن الموج سيخترق السفينة في أي لحظة، أتابع أرجحة القنديل المعلق في سقف قمرتي كل ليلة، النهار أشاركهم العمل على سطح السفينة،أشاركهم الطعام من اللحم المجفف ، تعلمت إشعال النار من عصاتين، وقليل من القش، يأست من رؤية اليابسة، في ظهيرة يوم يتراقصون فرحاً لرؤية طيور النورس، تطل عيناي** على جزيرتهم، مروج كثيرة، معبد مشيد أعلى ربوة، بيوت خشبية من طابقين أو ثلاثة، بأسقف مائلة على الجانبين، شوارعهم ضيقة، ثيابهم فضفاضة ، نعالهم من الجلد، البيوت متناثرة هنا وهناك، أشبه بجزيرتنا، ترسو السفينة، عدد من السكان أغلبهم

من النساء والأطفال يلوحون للرجال، يأبى الرجال أن يهبطوا قبلي، كلما مررت برجل ينحني، حتى النساء، أتأمل الأطفال، البراءة نائمة في عيونهم، متسخون بطين الحياة، أنوفهم ترشح من البرد، رائحة البحر ممزوجة برائحة السمك، أسفل قدمي خشب مبتل بالمياه، أواصل سيري بين الجموع، أتأمل ثيابهم، لا تختلف عن ثيابنا كثيرا، عيون الفتيات تبتسم فأبتسم، قَدموا تحيتهم لي، واصلوا حياتهم، أواصل سيري في شارع ممتد، رماله تداعب أصابع قدمي، تتسلل من صندلي فلا أبالي، يبتسم العجوز، يشير بيده أن أذهب حيث أشاء، ماذا أفعل في هذه الجزيرة؟ ماذا أفعل بين هؤلاء البشر؟ هنا رجال ونساء وأطفال، إذاً هنا خير وشر، حب وزواج، صخب البشر لا يتغير، لا أعرف ما يقولون، أقرأ آيات الغضب، الفرح، للضحك نفس اللون والرائحة، التي في جزيرتنا، نظرات العيون تتلون بالعشق أو الكره، تتلون بالدهاء والسذاجة.

زئير أسد يُسكتُ الصخب؛ يفزعون إلى البيوت القريبة، الأمهات تحمل صغارها، الرجال يساعدون النساء، الفزع يشملهم ببردته.

زئير أسد؛ توصد الأبواب القريبة، يخلو طريق المرسى.

زئير أسد؛ ألتفت إلى الوراء، قطعتُ شوطاً طويلاً بعيداً عن السفينة، أنظر للأمام فلا أحد، الكل اختفى خلف الأبواب، النوافذ خلفها عيون تراقب ما يجري، الأسد أمامي، كل منا يرى الآخر بوضوح، يتقدم صوبي، خطوة وراء أخرى، أرحب به، أرحب بالموت القادم، أثبت في مكاني بلا

حراك، هل تلتقي روحانا يا صالح؟ هل ستأتي إليّ أم أعود إليك؟ أم سنلتقي في عالم سرمدي، تعانق روحي روحك، نصبح حزمة من الألوان؛ كألوان قوس المطر، أتأمل الأسد، كثيف الشعر، يهش بذيله شيئاً ما، يرمقني بعينين عسليتين، أتلو آيات من صحف النجاة، أهمس «إن لم تدفعه الآيات بعيداً عني فمرحباً بالموت» تتقلص المسافة بيننا، يزأر الأسد بقوة، أرتجف، يقعد على قدميه الخلفيتين، أكتب على الرمال.. الله.. الله، ينظر إلى حركة يدي، من بين زئيره الخافت أسمع»ا.. ل.. ل..ه» أرفع يدي رافضة إيذاء هذا الحيوان الغريب، أتقدم صوبه، لا أدري أأتقدم من أجل الموت،أم أتقدم لأمر آخر، قلبي يخفق بشدة، العرق يبلل كل كياني، أمسح على رأسه الكثيف بيد مرتعشة وصدري يخفق بشدة، رائحة الموت نائمة في لبدته.. أعلم أن معجزات الله لا تنتهي، تسكن جوارحي، يتشمم يدي، أستلذ بمسح رأسه، أراقب نظرات عينيه، أسير فيتبعني كجرو يسير بجوار سيده، عيون الأجساد المختبئة تتابع في ذهول، يخرجون من مخبئهم في حذر، أحس بتجمعهم، أشم في الهواء همساتهم، أغادر القرية الساكنة البحر، تلفني المروج، بيوت متناثرة هنا وهناك، يتقدم صوبي رجل أصلع الرأس، يميل إلى القصر، مع قليل من البدانة، مرتديا ثوبًا أبيض، يزأر الأسد أمسح على رأسه فيسكت ويقعد، يقترب الرجل في حذرعار عن الخوف، متكئًا على عصاه، يتبعه بعض تلاميذه، خطواته تخبرني أنه صاحب هذه الأرض، يسألني:

– من أي البلاد أنت ؟

- أتعرف لغةَ قومي؟

يهز رأسه بالإيجاب ثم يكرر السؤال؛ أردف:

- بلاد بعيدة.

- كيف سَخرتِ الأسد؟

- بكلمة من صحف النجاة.. الله.

- الرب.

- الله..الرب.. الإله.. أنا أحبه وأعبده.

- وأنا أحب إلهي.

- هو الله، يعبده كل منا كيفما يريد.

- ألا تتعارض السبل؟

- كل منا سيحاسب وحده؛ كيف يعبده؟ اعبده أنت كيفما تشاء، وأعبده أنا كيفما أريد.

- أنا أدعو إلى الخير.

- الله هو الخير.

يصمت مفكراً

- ابقِ يا ابنتي.. بجوار المعبد توجد دارٌ خالية، اسكني فيها.

في طريقنا إلى تلك الدار، استطرد الكاهن:

– منذ زمن غير بعيد كانت هذه الأرض تعج بآلاف البشر، حتى استيقظنا على صخب من كل صوب، رأينا **قوماً** يسيرون فوق الماء، داست أقدامهم مع الصبح الجزيرة، قبل الغروب أكلوا اليابس والأخضر، شربوا الآبار حتى جفت، شربوا الأنهار وأكلوا ما حَوتْ، لم يبقَ شيء سوى الخوف في صدور الصاعدين إلى أعالي الجبال، هناك شيدنا معبدنا نبتهل إلى الرب أن يرفع البلاء عنا، يدور القوم حول الجبال كل يوم، وأخيرا استجاب الله لدعاء الأمهات والصغار والعجائز، **بعد أربعين يوم رحلوا، رأيناهم يسيرون فوق الماء، ذهبوا ولم يعودوا**، نزلنا في حذر، يوما وراء يوم، عادت الحياة كما كانت، لكن الخوف مازال في القلوب، جئت أنتِ بالخير، هذا الأسد كان يزأر في الليل فترتعد النساء، الصغار، لم ينجح الرجال في صيده، لا أصدق أنه يسير خلفي على بعد خطوات كأنه كلب كبير.

نتوقف أمام البيت، ينحني لوداعي، بيت من حجرة واحدة ، صندوق خشبي، حاشية للنوم،إناء للطعام ، قارورة للماء، ولا شيء آخر، آه.. على أحد الجدران سراج مملوء بالزيت، أستلقي على الحاشية، ربما يزورني النوم هذه الليلة مع غروب الشمس يسير الأسد إلى الجبل، يأتي الكاهن بصحيفة طعام وقدح ماء، يطرق الباب ويرحل.

وحيدة أنا والليل،

وحيدة أنا والنهار،

وحيدة أنا وذكرياتي.

أعبد الله في جوف الليل وأطراف النهار، يزورني الأسدُ بين الحين والآخر ثم يرجع إلى الجبل، بين الليل والنهار يضع الكاهن صحاف طعام وقارورة ماء.

تغزل الأفواه حكاية

«أنني جميلة وجئت من بلاد بعيدة، في هذه البلاد أحبني ملك طاغية، أبيتُ الزواج منه، أخبره جنوده بأني أحب عبداً فقيراً فأرسل لعرافة؛ فسحرت الفقير أسداً وقيدته في قفص وألقاه الجنود من أعلى الجبل إلى البحر، لكن الله شاء أن يسبح الأسد حتى هذه الأرض، تحطم القفص وخرج الأسد جائعاً يهاجم الديار في الليل، يهاجم الماشية، يأكل ما يشاء ثم يرجع إلى الجبل حتى رآني فما لبث أن عرفني فأبي أن يقتلني، علم الملك بهروبي فقالت العرافة إن الأسد لن يرجع إلى صورته الأولي إلا بموت حبهما أو موتهما. فها هو الأسد يعيش بجوارها، وهما يحب كل منهما الآخر».

الأمهاتُ ترويها للصغار حتى يصيبهم سهم النوم، يتسامر بها الرجال ليقتلوا الملل، وهم ملتفون حول النار في حقولهم ليلاً.

قبل غروب يوم طرق الكاهن باب داري، وخلفه خمسة فرسان، يضعون سيوفهم قدام الباب، توقفت في مكاني، قال الكاهن:

– عليكِ أن تختاري واحداً منهم زوجاً لك، احملي سيف من تريدينه زوجاً، عندئذ سيتبعك للداخل ويصبح زوجاً لك، أما إذا دخلتِ وأغلقتِ بابك فهذا رفضٌ لهم جميعاً.

أنحني تحية لهم، آذن لهم بالدخول، يترجم الكاهن ما أقول، أروي لهم قصة صالح وعاصي ووزير، أختم قولي:

- قلبي ليس فيه إلا صالح.

يوافقون على رفضي، أستوقفهم، أطلب من الكاهن ان يتزوج الخمسة الليلة، فأصحبهم لخمسة بيوت ليتزوجوا في ليلة واحدة، نساءهم قصيرات، جميلات، ابتسامات العذراوات تتلألأ خجلاً، أقعد إلى جوار الكاهن، أمامي الأمهات يتابعن الرقص والغناء، لم أعِ كلمة واحدة، لكن قلبي انتشى لرائحة السعادة، أخيراً آوى كل فارس لَعروسه، عدتُ وحيدة، عدتُ إليك يا صالح، خلف البيت بعض الأخشاب، من قنديل الزيت أسكب قليلاً، أخبز بعض الأرغفة، أحبوا خبزي الأبيض المستدير، تزورني النساء في النهار، الأواني الخشبية تخرج بأطعمتي إليهن، تعود بأطعمتهم، أحببتُ بعضها ونبذت أخرى، يطهون السمك بطريقة تختلف عن القلي و الشي، يضعونه في إناء من الفخار، يرشون عليه بعض التوابل، يضعونه على نار هادئة لفترة طويلة، يطلقون عليّ لقب العمة، تُعجب النساء بأرغفتي وما أصنع من طعام، أبني برجَ حمام، يُحرم الفرسان الخمسة على نساء البلدة تربية الحمام فيشترون مني، أتعرف لم الحمام؟ يذكرني بطائرك وهو يهدل بين يدي، يذكرني بعطرك، بعد العصاري، أصعد إلى سطح البيت، يخرج الحمام، يلتقط الحب من يدي، يحلق حولي ثم يطير في دوائر تزداد اتساعا، يهبط الحمام عند المعبد وبعض البيوت ثم تقفل راجعة قبل الغروب، تأوي إلى سكنها ، تهدل

من جديد، هديلها يذكرني بصوتك و سرك الذي مات معك. أحياناً في قلب الليل أشتاق إلى الصبار المزروع هناك عند قبر صالح، أتساءل ماذا جرى هناك؟

- أمازال القبر هناك؟

تساءلتُ مراراً، السؤال دائماً بلا إجابة.

خليل

(١)

يُرخي الليل ستائره على الكهف الذي هربنا إليه، في جوفه أتمدد بجوار هجير - جارية آية- لليلة ثالثة.

على بعد مائة متر تقريباً، تقعد إسراء فوق حجر، تراقب الصخرة التي سددنا بها فوهة الكهف، ستأخذها سِنةٌ من النوم، ثم تنتفض لتواصل نوبة الحراسة، أي جنون أقدمتُ عليه، لمَ أذعنتُ لجنونها؟ حين قالت:

«تزوج هجير لثلاث ليالٍ، ستعيش بعدها في البر الشرقي، ليبقى من نسل نوح من يطالب بحكم الجزيرة بعد وزير، ثم نواجه نحن مصيرنا مثلما تواجهه آية».

تضع راحة هجير بين يديّ، تدفعنا برفق إلى الداخل.

- اذهبا..اذهبا.. سأتولى حراستكما حتى الفجر.

لم ترفض هجير أو توافق، على هذه الأرض الحجرية تجلس عروسي، بلا ضوء، تغيب النظرات في ظلمة الليل، ترهف الآذان للأنفاس المتصاعدة على مهل، الأصابع تبحث عن الآخر، رغم الظلام، رغم الخوف، رغم الحياء، رغم القلق، يلتقي الجسدان، أشم فيها رائحة مَنْ أُحب، رائحة آية، عاصفة اللقاء تُهشم كل خوف، لا تبالي بأي محظورات، ربما تتدحرج ضحكةٌ بضعة أمتار وتتلاشى،

رقيقة كانت،

طيعة كانت،

متأوهة كانت،

كانت

وكانت،

وكانت.

يبصُ الصبح علينا، يعض شفته السفلى خجلاً من عُرينا، تتحسس أصابعنا الأرض بحثًا عن ثيابنا، ثيابنا المتناثرة في كل اتجاه، تسيرُ خلفي في حياء، إسراء تأتي ببعض الثمار في حِجر جلبابها، ترصُ الثمار على الأرض.

- أنسيت أننا عشنا في الجبل بضع شهور؟

تخطو صوب هجير، تقبل رأسها:

- صباحية مباركة يا عروس.

العروس سوداء الشعر، خمرية اللون، بضة بلا امتلاء الوجه تعلوه حمرة الخجل، ترمقني بنظرة مبتسمة، تسير خلف سيدتها الجديدة، متقاربتان في السن، لن تتجاوز هجير السادسة عشر، لن تتجاوز إسراء الثامنة عشر، تجلسان في ركن، تتدحرج الضحكاتُ نحوي، تبسط إسراء حاشيةً لتنام هجير، تنزع جلبابها لتتوسده هجير، تسير صوبي وعليها قميص تحتي من القطن، أبيض اللون، يصل إلى منتصف الفخذين، مع خطواتها تفك جديلتها الصفراء، لينام شعرها على جسد يميل إلى الحُمرة، عيناها واسعتان مشرقتان بألقٍ يتوارى خلف غلالة من الدموع، تقعد بعيدا عني، يعتريني الخجل، تنظر من فرجة الكهف إلى الجزيرة.

– مالك؟

– ...

– أنا اخترتها زوجًا لك.

– ...

– أتمنى أن تحمل هجير منك، سنترك خاتمي معها، عندما يكبر الوليد، سيفتش في القلعة عن صحف النجاة، ربما يعود العدل إلى الجزيرة مرة أخرى.

تستدير، تسير صوبي، تركع أمامي، تحتضن وجهي بين يديها، تقبل جبيني.

– نم.

عيناها رائقتان، جذابتان؛أغمض عيني، تكرر:

- نم.

مطيعٌ أنا،

كابنها أنا،

أتأملها أنا،

أنام قليلاً من الوقت، أستيقظ على بكائها، لا أدري لم تبكي؟ أنتظر حتى تفرغ من بكائها، تتمخط في ذيل قميصها، تكفكف دموعها، من الداخل تأتي هجير، تعطي سيدتها الثوب، ترتديه السيدة، تذهب لركن بعيد، تتكور في وضع جنيني وتنام باقي النهار، بعد الغروب تبسط هجير سماطاً عليه قليل من الزاد، نلتف حوله نحن الثلاثة، تتنازل كل واحدة منهن عن نصف نصيبها لي، تضحك إسراء:

- كُل.. كان الله في عونك.

تكتم هجير ضحكة، يتناثر قليل من الطعام، تنفجر إسراء في الضحك، نشاركها الضحك، غير مباليتين بأي خطر يداهمنا، نضحك ونضحك، تبلل الدموع خدودنا، تمسح جبينها المندى بالعرق.

- خذ عروسك واذهب.

الآن الليلة الثالثة، عروسي بجواري، فرحةً بعريها، مزهوةً بأنوثتها التي رشفتها ثلاث ليالٍ متتالية، ليلة أمس رشفتُ من نبع أنوثتها ثلاث مرات،

رغم ظلمة الليل وظلمة الكهف رأيتها ترقص، ثمة بصيص من الضوء، ضوء أبيض شفيف، يأتي من مشكاةٍ، لا أدري مصدرها، تعانقني بقوة، التقينا بجنون، تدحرجنا على الأرض مرة وثانية وثالثة.

الليلة امتزجنا مرة واحدة، دموعها بللت صدري، بحنو أخذها النوم إلى مخدعه، ربما يحكي لها قصصًا حتى الفجر، أصنع من جلبابي وسادة لها، أسير إلى منتصف الكهف، أستلقي على الأرض، أحدق باحثاً عن سقف الكهف، لا أراه، أرهف لهديل حمامة.

***

مع غبش الصبحِ أشاهدُ الحمامةَ، تطيرُ من بيتنا إلى بيت آية، مبللة بعطر صالح، رأيته يمسحَ عليها بكفيه، مرة وراء أخرى، ثم يطلقها، يرجع إلى مقعده، أتأملها وهي تطير في الفضاء، تداعب ندى الصبح، تتأرجح بين جدائل الفجر، تحط هناك في برج الحمام، أرسم آية بثوبها الفضفاض، وشعرها المسدل على كتفيها، والحمامة بين يديها، ربما توشوش لها بكلمات، ربما ترهف السمع لهديلها، تعود الحمامةُ مع الغروب، يجلس صالح على الأرض، يطعمها، يتأملها كأنه يدعو الله ويُسبح بحمده مع هديلها، سمعته يقول:

«لو أعرف هديلك لسألتك عن كلماتها، بل نبرة صوتها وهي تحكي لك، أتخبريني أم تمسحين رأسك في صدري، وتقولين هذا سر بين الخليل وصاحبه، اذهب واسألها».

يفك خصلة من شعر آية ملفوفة برفق حول ساق الحمامة، يضع الخصلة مع الأخريات في كيس صغير من القماش معلق حول رقبته، تدفعني الغيرة والصوت النائم في أذني؛ هامساً:

« من أجلها..من أجلها» للدخول إلى حجرته، على ضوء القنديل ينسخ صحف النجاة، ينسكب ظلي على ما يكتب، يرفع عينيه عن الصحف:

- ماذا هناك؟

- أحب آية.

يتوقف عن الكتابة، ألحظ ارتعاشة قلم البوص في يده، يضحك:

- وهي؟

- لا أعرف، قل لي ماذا أفعل؟

يشير بقلمه صوب صدري:

- قلبك هو دليلك.

يهرب إلي نسخ الصحف، تتوارى أحزانه خلف ستائر الليل، أخرج إلى صحن البيت، أدور وأدور، أرقص، ألملم فرحتي إلى حجرتي، هناك أحلم بها، نذوب في نهر العشق، لن يخبرها صالح بما قلتُ، سيظل سري حائلا بينهما، مع الصباحات التالية أحدق في الأفق، الحمامة لم تغادر عشها، مع الغروب تسكن بين راحتي صالح، جاء البدرُ في موعده، خارج البيت صالح

قاعد على مصطبة من الطين، شيدها بنفسه ليجلس عليها في الليالي المقمرة، يحدق في البدر، أحسَ بخروجي إليه، يتكلم:

– لم أنس قول عبيد؛ صحونا يوماً لم نجد الولي بيننا، قلنا اعتكف في حجرته في برج القلعة، صعدتُ إلى الحجرة،الحجرة خاوية.

فتشنا الجزيرة، فلا أثر له، زعم بعضهم أن صاحبهم جرع الخمر وقتل الولي، خرجتُ أفتش عن هذا السكير، سألته بنصل سيفي قبل لساني، فقال السكير:

– لم أقتل مولانا الولي.

كل أهل الجزيرة خرجوا يفتشون عن الولي، لم يره أحد، نظر غلام إلى قمة الجبل الغائبة في الضباب ومزينة بالثلج؛ وقال:

– مثلما جاء مثلما ذهب.

بعد أربعين يوما ناديت في الناس:

– لكل حي نهاية واحدة هي الموت، الولي مات..الولي مات.

بكى الصغار، العجائز، النساء والرجال، حتى الذئاب عوت في الليل، شيء ما اختفى من حياتنا، كأن ضوء الشمسِ أصابه الشحوب، وضياء القمر شاب بعض الشيء.

سكت عبيد، كنا صغاراً، نرافقه أينما يذهب .

انتشر خبر في البر الغربي «كنز الولي في القلعة» تحت جناح الليل، في غياب البدر، والسحب القاتمة تملأ السماء، تسور رهط من الناس أسوار القلعة، مدججون بالسلاح والمشاعل، يسرقون كل شيء، يقتلون من يعترضوا طريقهم، يضرمون النار في كل مكان، الجياد تفر من حظائرها، الحمام يطير مشتعلاً هربًا من النار، الحمام كرات نارية تحلق في سماء سوداء، السيوف طعن بلا تردد يقتلون آباءنا وأمهاتنا، وبعض أولاد عمومتنا، أنات الموت تهبط على الأرض، تدهسها أقدام السائرين، يحطمون الأثاث، يفتشون عن الذهب ، يصرخون

- أين الذهب ؟ أين الذهب؟

كنا في صُحبة عبيد في حجرة الولي، يحكي لنا قصصه التي لا تنتهي، على رائحة الحريق ودخانه، و صراخ القتلى انتفضنا، كنت ابن ثلاث عشرة سنة، أغلقَ الحجرة علينا، ترك لي خنجراً ولوزير آخر، ينحت وزير أول تمثال والدموع تبلل وجنتيه،نتابع ما يجري من النافذة، نبتلع صراخنا ، نبكي ونبكي ونبكي،

وجه عبيد مزين بعمامته البيضاء، يبحث عن الناس، يفرون من أمامه،مرددين «عبيد..عبيد» قليل من يعرف أنه أصلع الرأس،يسير شاهراً سيفه، ينزل إلى الطابق السفلى، الدماء تلوث الدرج والأرض، النار تأكل بنهم، مستعرة في حجرات الخزين، يأتي بعض الناس لمساعدته في إطفاء الحريق، يصنعون صفا من القلعة إلى النهر، يتبادلون الأواني الممتلئة بالماء، تخمد النار مع الفجر.

يعبر إلى البر الشرقي، يفتش عن القتلة، قتلهم قبل الظهيرة، وعلقهم على جذوع النخل، في القيلولة يطوف في أزقة البر الشرقي قائلاً:

– قبل قدوم الولي كان المعتصم حفيد نوح يحكم الجزيرة وقُتِلٍ في حربه مع الغريب، والآن مات الولي بعد سبع سنين من العدل، وقتَل رهطٌ منكم إخوة المعتصم وزوجاتهم في مضاجعهم، وبعض صغارهم، طمعا في كنز لا وجود له في القلعة، سأحكم الجزيرة حتى يشب ما بقي من العيال عن الطوق، فمن يُرد منكم الحكم فليأتِ إلى القلعة.

عاد إلينا، لا أنسى إخوتنا وأخواتنا وأبناء عمومتنا في أكفانهم البيضاء، وكذا أعمامنا وعماتنا، دفن الموتى في المقابر، دفن معهم البسمات والضحكات، وزهو الأيام، لم يبق من آل نوح سوى ستة من الصغار في رعاية عبيد، جاءتْ أرامل وثكالى التسعة رجال تستأذنه في دفن موتاهن فأذن لهن قائلاً:

– لا تزر وازرة وزر أخرى.

استيقظنا على صراخ كدبيب النمل، من شرفتنا أرهفنا السمع ودققنا النظر، هناك في البر الشرقي، على مدى الشوف ألسنة النار تخترق جسد الظلام، صعدنا إلى برج القلعة، منه نراقب البر الشرقي، أمر عظيم يجري على الجانب الآخر من النهر، يصحبنا عبيد إلى هناك في حراسة بعض جنوده المخلصين، يستقبلنا دخان يطرد الناس من بيوتهم، نسير خلفه، قرية من القرى القريبة من البحر، النار تنتقل من بيت لآخر، أشباح تطارد بعضها بعضًا، قطع تتلألأ في الأيدي.

الجثث في الطرقات، داخل البيوت، أبدان محترقة، يلفها سواد الموت، رائحة اللحم المحترق تعشش في أركان البيوت، نال الموت حصته، ثَقُلتْ معدته فجلس بجوار أحد الجدران يلتقط أنفاسه، متأملاً الموتى من النساء والرجال، قطع الذهب ملقاة على الأرض، يلتقط عُبيد قطعة منه، يتساءل مصدومًا:

- من أخرج الذهب الملعون من البحر؟

نسير في أزقة القرية، نلحظ خانًا لبيع الخمور، ندخله في حذر، السيوف في أيدينا، مشهد متكرر من جثث القتلى، الدماء، الفزع، الخوف، الجشع، كل هذه الأمارات نقرأها على الوجوه، حركة عند القوارير، يسرع الحرس إلى هناك، امرأة منكمشة في ركن قصي، قصيرة البدن، شعرها ثائر، وجهها ممتلء بالتجاعيد، الذعر يسكن عينيها، ترتعد من الخوف، الماء يبلل يدها، يقعدها الحرس أمام عبيد.

- تكلمي.

أحضر قدحًا من الماء، تتجرعه، تمسح وجهها بقليل من الماء، تطلق لسانها:

- جاء السكير في أول الليل، تناول كأساً وراء آخر، ثَقُل رأسه فاندلق الكلام منه.. لم أقتل وليكم، كل ما في الأمر، أني رأيت امرأة، فلعب بي الشوق، سرت خلفها من زقاق لآخر، أخبرتني أنها زوج لشيخ، فقلت لها «بي شوق» فأبت، منحتها قطعة ذهب، فدلتني إلى بيتها، رشفنا الخمر،

تقاسمنا رغيف العشق، فجاء ابن زوجها، قتلته حتى لا ينكشف سرنا. سكتَ ليشرب من الخمر قدحاً، سأله رجل: «لك العشق ولنا الذهب.. أين وجدته؟» أصاخ كل من في الحانة لكلام السكير، انطلقت المراكب على ضوء القناديل، يستخرجون الذهب حتى الفجر، مع الشمس انتشر الخبر، جاءوا بكل الذهب، قبل الغروب، تنابزوا بالألقاب، تشابكت الأيدي، خرجت الخناجر والسيوف، اشتعلت النار في البيوت في أول الليل، لا نعرف من أغلق الأبواب والنوافذ في كل بيت دخله الذهب.

يسألها عبيد:

– أتعرفين السكير؟

تهز رأسها بالإيجاب، يصحبها جنديان ليفتشا عن السكير بين القتلى والمصابين، يأمر جنديين آخرين بجمع الذهب من يد الموتى والمصابين، جمعنا كل الذهب، جاءت المرأة.

– ليس بين الموتى أو المصابين.

– اذهبي لحال سبيلك، ادفنوا الموتى، ثم ارجعوا إلى القلعة.

حملنا أجولة الذهب إلى قارب ركبه عبيد، غاب عن أعيننا، عاد قبل الفجر إلى القلعة، طلب من حارسين مراقبة تلك المرأة لشهر كامل، بالفعل اختفى السكير، خمن الجنود؛ ربما احترق في إحدى البيوت .

تعلمنا منه الكثير، حتى جاء الرماديون بعد سبع سنين.

***

– ماذا تقصد من هذا الحكي؟

يتوقف عن السَمر، عيناه تسألاني «ألم تفهم؟» يلفنا الصمت بثوب واحد.

جاء الصبح مع صوت هجير، صوتها مغموس في بحيرة من الدموع، عيناها حمراوان:

– سيدي، حان وقت الرحيل.

عند باب الكهف تقف إسراء بجلبابها المتسخ، تحمل هجير بقجة ملابسها، قليل من زاد الرحيل في قطعة قماش صغيرة، تسير إلى جواري، تمسك أصابعي، تناغي أناملها راحة يدي، تضغط برفق، صوتها همس عصفور:

– مولاي، سيدتي إسراء تحبك، لا تنظر صوبي، هي تراقب خطواتنا، ستظن أننا نتلكأ طمعاً في مذاق العشق الباقي، هي تحبك، تريد أن يبقى منك طفل، ربما تعود تجد ابناً لك، تحبك لأنها ستغامر بالسفر معك في بحر لم يرجع منه أحد، امنحها شيئا، فهي منحتك كل ما تملك، وتركت كل مالها من أجلك.

بيننا وبين إسراء بضع خطوات، تفلت يدها من يدي، أراقب وجهها، تتعانق المرأتان، تتبادلان قبلات كجفاف الحلق «أي حزن كانت تعانيه إسراء» تخرج هجير من الكهف، تسير على حافة الجبل حتى طرف البحر، هناك تسكن قرية من قرى البر الشرقي، ستدخلها مع الليل، تسكن بيتًا من

البيوت المهجورة، أنتظرتُ حتى غابت عن عيني، أتأمل وجه إسراء التهمته الغيرة، أي عشق هذا وهي تعلم أني هناك على بعد خطوات، وامرأة أخرى بين ساعدي، تنظر في عيني، كلصٍ ضُبطَ وهو يسرق، تتكلم:

– لا أدري ستنجب ذكراً أم أنثى، وربما لاتنجب تركنا خلفنا عشرات القتلى من العبيد، سيقتحم وزير القلعة الليلة، يجب أن نرحل بعد العصر.

تبسط الطعام بيننا، بين لقمة وأخرى يتساقط الماضي كغبار كثيف جاء من زحزحة أحجار متراصة منذ زمن.

***

صوت يفزعني «قتل صالح.. قتل صالح» صالح قُتل، من قتله؟ أسرع إلى الطريق، يشير العبيد إلى الحقول، أردد «مات أخي..مات أخي» أطارد القاتل، أحاول اللحاق به في الحقول، النار تأكلُ الزرعَ، تخلق مساحة شاسعة بيني وبينه، تلجمني الدهشة، يضحك عاصي، يضحك بجنون، ابن عمي قتل أخي، لماذا؟ سؤال بلا إجابة، ترتد خطواتي إلى الطريق، صالح بين يدي آية، تبكيه، تمتزج دموعها بدمائه، إلى هذا الحد تحبه، وأنا؟ لا مكان لأحد في قلبها، تترقرق الدموع في عيني، لموت أخي! الحقيقة أبكي لموت أملي في الزواج منها، ربما أبكي الاثنين معاً، أكفكف دموعي، يدفعني الغضب إلى بيت الحاكم في ثوب بلون الحريق، وقع خطواتي تخرجه عن شروده للحظة، أشرد في أمر جديد، "مات من تُحبْ ؛ فمن ستتزوج؟ أشهر سيفي في وجه وزير القاعد على درج السلم الخارجي لبيته محدقاً في النار وهي تهدأ شيئاً

فشيئاً، ثقيلة خطوات الليل، النار تقدم قربانًا لهذا السواد الخانق، أجرع حزنًا مريرًا، يلملمه الصمت في جلبابه، أحتد في حديثي:

- سأقتل أخاك، كما قتل أخي.

مازال أسفل جلباب الصمت، تومض شفتاه بابتسامة ساخرة، أندفع للبحث عن عاصي في الداخل، يستوقفني العبيد، صوت سيف يخرج من غمده، النصل في قفاي، صوت وزير أكثر حدة:

- خطوة واحدة سأقطع رقبتك.

خلفه أخوه يصفق ويزغرد، يدنو منا، بعينين زائغتين، رائحة احتراق لحمه، بعض شعره، خيوط النار تتخلل قماش الليل، يده تلمس كتف وزير، يلتفت إليه، حروق متناثرة على وجهه، الوجه عاد إلى طفولته، يسأله:

- ألم تر آية؟

النار أكلت أطراف ثيابه، أحرقت أجزاءً من جسده، شارد الذهن، يحدق في تفاصيل الظلام، يرتجف من نسمات الهواء، يضع وزير سيفه في غمده، يمسك بيد أخيه، يجلسه بجواره متسائلاً:

- ماذا فعلت؟

أنسحب إلى الخارج، أتنسم الهواء الملفوف بثياب الدخان، بيني وبين الموت لحظات لولا دخول عاصي، أعلم أنني لن أقوى على مبارزة وزير، الحمد لله.. الحمد لله.

***

تسألني إسراء:

- أأكلت؟

سؤالها يخرجني عن شرودي، أجيب:

- الحمد لله.

- نتحرك الآن أفضل.

ألملم ما نحتاجه، ماذا يحتاج الإنسان منا ليواجه الموت؟ أتوقف مكاني، أفكر في السؤال، الذي طرأ الآن على رأسي، عند باب الكهف تنتظر قدومي إليها.

- أنسيت شيئاً؟

- لا، لا شيء.

ماذا يحتاج الإنسان لمواجهة الموت؟ في الحقيقة لا شيء، لا شيء على الإطلاق. نسير في حذر، الصيادون يغادرون المراكب، المراكب تنام على رمل الشاطئ، ربما تشتكي للرمال ما عانته من الفجر إلى الآن، أحدهم سندفعه بعد قليل إلى البحر، لو يعلم أنه لن يعود، ربما مكث ليودع المراكب الأخرى، أي جنون ينخر رأسي، أي جنون يسري في بدني، ندفع القارب إلى البحر، أكواخ الصيادين على مرمى البصر، يتراقص بها الضوء احتفالاً بعودة الرجال، الرجال الذين سيلعبون مع صغارهم ويتقاسمون معهم لقيمات

العشاء، يثرثرون حتى ينعس العيال، يفترش الرجال النساء، يتسلل النوم إليهم غير مبالين برائحة العرق الممزوجة برائحة السمك، رائحة أصبحت جزءًا من حياتهم، تجدف إسراء، سواد الليل يبلع في جوفه موج البحر، البحر الذي يرقص مع الهواء رقصات العشق، النجوم تطل من شرفاتها البعيدة ترهف لهدير البحر، هناك على البر، بالتحديد عند القلعة؛ يدور وزير بين الجثث، يكتشف الخدعة، اختفينا أنا وآية وأخته، لن يعرف هل سافرنا معا أم سافر كل منا بمفرده، إسراء سافرت معي أم مع آية، ستلعب به الظنون، لنكسب بعض الوقت، أيدفع بالقوارب إلى البحر؟ يعلم تماما أن المراكب لن تقوى على السفر، والجزيرة لا تملك سفينة واحدة، سوف يستغرق وقتا ليصنع سفينة ليطاردنا، مَنْ من الرجال سيوافق على ركوب البحر، لن يوافق أحد، حائر أنت يا ابن عمي.

***

أراك وأنت تطرق بابي في عصر يوم مضى، يتبعك صاحب العباءة، تقرأ الدهشة على وجهي، تتحدث:

– نحن أبناء عمومة وآية أيضا فلابد أن تختار زوجاً منا.

أرتبك، أنتفض واقفاً:

– أنا لا أحبها.

لم يمنحني لحظة للتردد:

- سأذهب لسؤالها في أمر الزواج، وإذا أردت أن تلحق بي لن أغلق الباب في وجهك.

ينفلت سؤالي:

- كيف أتزوجها وهي تحب أخي؟

- أخوك مات.

- حبها لم يمت، إلى الآن تذهب إلى قبره مع كل صباح، تسقي الصبار وتحكي كأنه أمامها ويسمع حديثها، تبقى حتى الظهيرة ثم ترحل، أتريد جسداً بلا قلب؟!

وجهه يحمل آيات السخرية:

- عندما تنتفخ بطنها وتلد سيموت حبها تدريجيا، لا شيء يبقى على حاله.

- لن أذهب.

- لك ما تشاء سأذهب إليها.

جاءتني إسراء، تكلمت بذعر:

- حذرها لتهرب.

أسرع إلى برج الحمام، تكتب إسراء رسالة، نتابع الحمامة وهي تطير فوق الحقول، تحط على بيت آية، تخرج من الباب الخلفي تتبعها جاريتها هجير،

أخرج بين رجالي لقطع الطريق على وزير، يصعد بعض الرجال أعلى الشجر والنخيل يحملون السهام والأقواس، بعضهم يتخذ من الأشجار متاريس، أنتظر مع الباقين قدومه وتابعه، غبار الخيل يتصاعد من بعيد، أستل سيفي، يراني بين رجالي، يتوقف بثيابه الزاهية، المواشاة بالحرير، وخاتم ذهبي يزين خنصره الأيمن، أصرخ صراخاً يهتز له جسدي النحيل، أزعق:

- اتركها و شأنها.

قلتها وأنا أحلم بهروبها إلى صدري، تلوذ بذراعي ألستُ قبساً من صالح، كما هي قبس من الولي.

- لا شأن لك بها.

- إنها ابنة عمتي.

- وابنة عمتي أيضا، أين هي؟

- ابحث عنها.

يقبض التابع على يد وزير، قبل أن يستل سيفه، يتبادلان النظرات، لو تركه يشهر سيفه لسقط قتيلا وأصبحت آية لي وحكم الجزيرة، أول حكم سوف أصدره هو شنق هذا التابع الكئيب، يستدير بحصانه زاعقا:

- إلى أين ستذهب؟ لم يبق من الأرض بعد الطوفان الكبير إلا جزر متناثرة، كل أهل جزيرة اكتفوا بها أرضاً ونحن نكتفي بجزيرتنا، سأفتش

الجزيرة بحثًا عنها، أم تظن أنها ستركب البحر إلى أرض أخرى!! أرض لم يأتِ منها أحد، ومَنْ رحل عنا لم يعد. ابقَ مكانك أو ارحل إلى القلعة؛ سأهدمها عليك وسأعلمك كيف تشهر سيفًا في وجهي.

نحتمي بالقلعة، أعلم من إسراء برحيل مَنْ نحبها، الحزن يأكل صدري لخروجها من أرض نوح، أيعنى ذهابها أنها لا تريد أياً منا؟ تهشم حلمي أسفل قدمي أجمع رجالي، أمدهم بالسلاح، قبل غروب الشمس تنهال علينا السهام والنيران، فنرد بالسهام، من يوم لآخر ونحن نتبارز، أترك رجالي وأذهب مع إسراء، تنادي قبل الخطوة الأخيرة:

- هجير تعالي.

رحلت آية منذ اليوم الأول، اختبأنا في الكهف أربعة أيام وثلاث ليال.

***

نحن الآن في البحر، البحر ينظر إلينا بدهشة، رجل وامرأة في قارب صغير يبحران في قلبه، لو يرشدنا إلى أين؟ لو يخبرنا الموج عن أقرب جزيرة، لو نبصر سفينة، لا شيء سوى إسراء، تمنحني جسدها، تهمس «أحبك.. أحبك» عاريان في قارب، تضع رأسها على صدري، تشير للسماء:

- صافية مثل قلبي.

- تقصدين صافية مثل قلبي.

– مَنْ قال إن قلبك صاف؟

تعتدل لتواجهني، تشير بأصبعها إلى قلبي، وتردف:

– هنا تسكن ثلاث نساء، آية التي رحلت، وهجير التي تحمل علقةً في رحمها، نأمل أن تنتفخ بطنها بنسلك و.. هل لي مكان في قلبك؟

لا أدري لماذا أحبك، تساءلتُ لماذا أمنحك حباً. طمعاً في طفل؟ كل الرجال قادرون على منحي طفلا، كيف أحبك وفي عينيك حب آية؟ كلكم تحبونها،فيها قبس من الولي يسحر الناظرين، لم أطلب سواكَ، حين أخبروني أن هناك قتيلاً من أبناء عمومتي، أسرعت لأرى المقتول وقلبي يسألني عن القاتل. خفق قلبي فرحًا؛ فلست قاتلاً ولا مقتولًا، تنام بالقرب مني في حضن امرأة أخرى، أتسلل وأراقبكما رغم سواد الليل، إن لم أر فإني أسمع أنفاسكما، ضحكاتكما، أبكي لتطفئ دموعي نار الغيرة، للحظة وددت أن أمزق ثوبي وأسألك ما الفرق، حين سرت إليك بقميصي التحتي، أدعوك إليّ، لم تسمع دعوتي، تكورتُ كطفل يخنق ما بداخله، أغرق في دموعي، وأنت تدفع القارب إلى البحر رمقتك، أعرف تماماً أنك تدفعه يائساً من الحياة، فالكون لا يساوي عندك شيئاً بعد رحيلها، نجحتُ في إزاحتها من طريقي، لكن قلبك مازال مشغولاً بها، لو قبلتني وأنا احتضن وجهك بأصابعي لعدنا إلى الجزيرة وركعتُ تحت أقدام أخي؛ ليتركنا نحيا في بيت وتتمدد بجواري وأحبل منك، تعود مع الغروب لتزاحم يدك يدي، ليتوضأ جسدي بعرقك، لكنك لم تفهم.

سرتُ معك إلى الموت بلا خوف،

سرت معك إلى الموت لأخبرك بالحقيقة،

سرت معك إلى الموت لأقول لك أحبك.. أحبك.

أجهشتْ في البكاء، أسماك كبيرة تدور حول القارب وترحل، تأتي مع الفجر والغروب، ترهف السمع للصمت الساكن في قاربنا، أنا وهي والصمت، كل منا شارد في عالمه، عالمها لا أعرف عنه شيئاً، عالمي متداخل، صورة من الشرق، حوار من الغرب، لا شيء حولنا إلا اللون الأزرق، لا أمل في النجاة،ماذا أنتظر؟ أنتظر الموت، حياتي دون آية موت فلأسرع إليه، ألقي بنفسي في البحر، تلقي إليّ بالحبل، تهددني قائلة "سألقي بنفسي في البحر إن لم تعد".

قالتها بلون الخوف،

بلون الحب،

بلون طفولتنا،

بلون الدموع المتساقطة على القارب،

بلون اليأس،

قالتها بجنون

قالتها بحروف مفككة،

مازلت أسبح بعيداً عن القارب، تخور قواي، مازلت أحب الحياة، ومازال الموت بعيداً،عسيراً عليّ، تأكل دموعها الحروف فلا يبقى إلا البكاء ثم النحيب، أعودُ خائر القوى، تحتضنني، تهدهدني وتقبلني، تمسح على بدني وتبكي، تقبل رأسي «أحبك.. أحبك» نهدأ، يطل الصمت علينا، الشمس تميل إلى الغروب، تظهر الأسماك الكبيرة مرة أخرى، يدها تلمسني، تتسلل إليّ، على مهلٍ تحتويني، تتمدد في عالمي، دموعها تمتزج بعرقي، بماء البحر، كل هذا يقطرُ على جسدها.. عدتُ لنقتسم رغيف اليأس، لنقتسم قطعة الأمل، تبلل شفانا قطرةً نمتصها من قربة الماء، نتدثر بثيابنا، فالليل شديد البرودة احتضنها هرباً من الخوف والبرد والموت، تضع رأسها على صدري، تغمض عينيها فراراً من الجوع و الظمأ.

– احكِ لي.

– عن..؟

– أي شيء.. أي شيء.. للحروف مذاق خاص وأنا معك، احكِ.

أحدق في النجوم، أرسل صوتًا ينسجم مع هواء الليل.

***

تحلقنا حول النار في بيتنا، عبيد يقلب النار بطرف عصا، ننصت لصوته الواهن من قسوة المرض.

– جاء الغريب بعد ثلاث سنين عجاف، أكل أهلنا الجراد وأوراق الشجر، طهوا الكلاب والقطط، الذئاب تهاجم الجزيرة، لم يكن هناك نهر،

بيوت آل نوح قريبة من الجبل، يشتغلون بالزراعة، يصطادون الحيوانات، بقية أهل الجزيرة يحبون البحر وما فيه من سمك مختلف ألوانه، يخافون الحيوانات، آل نوح يتناوبون حراسة بيوتهم القريبة من بعضها بعضاً، لم يسلموا من الحيوانات ولم تسلم الحيوانات من سهامهم، فشيدوا بيوتا من الحجارة، بيوتا عالية الجدران، تولى المعتصم والدنا أمر آل نوح. مع نهاية العام الثالث، جاء الغريب متكئاً على عصاه، عباءة سوداء على كتفيه، مع صباح شديد الحرارة، يهبط إلى الأرض، لا يعبأ بسخونة رمال الشاطئ، خلفه البحر، أمامه مشارف بيوت الصيادين، بيوت من الخشب أو القش، ثم بيوت الفلاحين من الطين اللبن، خلف البيوت مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية قتلها الجفاف، في تلك البيوت أناس أقدامهم لا تقوى على حمل أصحابها، نهود النساء لا تحمل ما يُسكِتْ الصغار، الصغار عيونهم سَكبت كل ما فيها من الدموع، يستندون إلى جدران كالحة، أمست جلودهم تلامس عظامهم، يتأملون ذلك القادم من بعيد؛ بدين قصير القامة.. أجعد الشعر.. مستدير الوجه والعينين، يجلس على أقرب حجر، يمسك حفنة من الرمال، يتركها تتسرب من قبضته ببطء، يتأملها كأنه يتحدث إلى نفسه.

– الجفاف يسكن هنا منذ ثلاث سنوات، البهائم نفقت في الزرائب، كل يوم تحملون الموتى إلى البر الغربي، البحر لا يحمل رزقا لكم، يخرج الرجال بشباكهم، يعودون كما ذهبوا، أحيانا يبتلع الموج مركبًا أو اثنين، آل نوح الآن يتضورون جوعاً، يحملون موتاهم إلى القبور، يدفنونهم على عمق

كبير؛ خشية أن تصل إليهم الذئاب التي تعلن عن قدومها بعواء ممتد، الغابة النائمة خلف الجبل، نفق فيها المئات من الحيوانات، ذبلت الحشائش وبعض الأشجار، ينابيع الماء حول الجبل جفت.

يحدق في السماء، الخالية من السحب، يردف:

– السماء لا تشعر بكم، الرب تركككم للموت، حتماً هو سعيد بمواكب الموتى، أمس بعد الغروب حملتم آخر موتاكم إلى هناك، فقطعت الضواري الطريق عليكم، تركتم الميت على الطريق، تراجعتم بظهوركم، الذعر حصى يعرقلكم، مع الصبح عرفتم أن الضواري مزقت الميت، عظامه يسير فوقها النمل، الضباع تلعق بقايا الدماء، شكرتم الرب على نجاتكم، عدتم إلى دياركم. والآن ترتجفون من الموت القادم على مهل، ربما يصل في النهار، وربما في الليل القادم يطوي في سواده ضواري، ضوارٍ لم تعرفوا عنها شيئا إلا أنها تعيش هناك خلف الجبل.. تبتلعون كلماتكم وتمضغونها، ربما يسيل اللعاب ويرطب الحلوق الجافة، لكن لا شيء، اقتربتْ ساعة القيلولة، لا شيء قادم سوى الموت.

يصمت قليلاً، ينظر للوجوه الشاحبة، حروف كلماته تسكن الأجساد الجافة ثم يردف:

– حزينٌ لأمركم، جئتُ إليكم لأحمل سحاباً في السماء، وأستخرج الزرع من شقوق الأرض الجافة، بشرط أن تقتلوا معي كل آل نوح.. الصغار قبل الكبار.. النساء قبل الرجال.. إذا بقيتم إلى الليل ستهاجمكم الضواري، لن تشرق الشمس عليكم فبيوتكم هشة.

يزفر آهًة طويلة، كلماته تلعب برؤوسهم، يسترسل :

- كيف تصدقون غريبًا؟ اصبروا قليلاً، ستخرج من هذا الجانب امرأة صارخة أن ذئبًا اختطف صغيرها، عندئذ ستصدقونني وتقدمون ولاءكم.

يغمض عينيه، لحظات صامتة، تدور الرؤوس فوق الأكتاف، حيث أشار، امرأة تصرخ، تخرج من الأزقة الضيقة «ذئبٌ اختطف ابني، ذئبٌ اختطف ابني». يرفع الغريب يديه للسماء، يتمتم ويتمتم بكلمات مبهمة، تسقط عباءته عن كتفيه، يشير بالعصا صوب البيوت، صوب السماء، يأتي الذئب، ذيله بين رجليه الخلفيتين، حاملاً الرضيع من قماطه بين فكيه، يشير إليه، في خوف وحذر يضعه على الأرض، يأمره بالرحيل فيجري مذعورًا كأن شيئًا يطارده، يختفي، يسرعون إليه، يتضرعون إليه أن يحميهم من الجوع، يحدثهم.

- أأتيتم كلكم؟

يهزون رؤوسهم بالإيجاب، يحرك عصاه نافياً.

- مازال شيخ طاعن في السن في بيته، احملوه إلى هنا.. لن أطلب منكم الإيمان بي الآن، ستؤمنون.. ستؤمنون.

يشير إلى أحد البيوت القريبة، يسرع عدد من الرجال ليأتوا بالشيخ على محفة من جذعين جافين بينهما قماش بال وقذر، يرفع يده إلى السماء، تنفرج أسارير الغريب، يتبعونه حتى أطراف البلدة، خلفه بعض بيوت الموتى،

يأمرهم بالتوقف، يخطو بضع خطوات يرفع يديه للسماء يغمغم ويغمغم، تتلبد السماء بغيوم رمادية، تهب رياح باردة، عواء ذئاب، يواصل تراتيله، يشتد البرق والرعد، يحمل حفنة من الرمال، ينثرها في كل اتجاه، تتساقط حبات المطر، يتصايحون مثل صغارهم.

– مطر.. مطر.. مطر.

يهطل المطر، لخريره جَرس حلو المذاق، يركلون الأرض المبتلة، يرفعون أيديهم للسماء كأنهم يجذبون خيوط المطر من جوف بعيد غير مبالين بثيابهم المبتلة، غير مبالين بصوت الرعد أو ضوء البرق،يشتد المطر ويشتد، تصفو السماء، كأن ما حدث حلم خاطف، يرهفون السمع لصوت الأرض وهي تصطك، تهتز، يتراجعون بضع خطوات، يخرج من بين ثناياها عود أخضر ثم آخر ثم ثالث، تتحول العيدان إلى فروع مثقلة بالثمار. يلفهم الذهول في ثوبه الناعم، جاءت الثمار فوق الأغصان في بضع دقائق، يقطفونها، يستلذون مذاقها، تمتلئ البطون، ينعمون بالظل، يمد يده لضرع بقرة يحلبها حتى يمتلئ قدح، يصغي للصغار ويمازحهم، يتلألأ الشوق في العيون، يأمرهم بالرجوع إلى بيوتهم، يتأملهم بغيظ، جماعات متفرقة، يرفع صوته:

– احذروا الضواري.. احذروا الضواري.

يتسمرون في أماكنهم، صورة الطفل الرضيع ترتسم على جدران الذاكرة، يقعد بين الناس مردداً:

- سأحميكم منها، لتنعسوا في بيوتكم، زوجاتكم بين أحضانكم، صغاركم تحت أقدامكم.

يتلو آياته، فتخرج الضواري والحيات من البيوت الخربة.. من البيوت العامرة بأهلها..من الأزقة، تتجمع حيث يشير، يزعق فيها:

- ارجعوا إلى الجبل.. إلى الجبل..

تتقهقر الوحوش، أصواتها صاخبة، يكرر كلماته، أخيراً تتحرك، تختفي بعد وقت وجيز، ثم يواصل الناس سيرهم، يستعطفهم:

- لا تتركوني وحيدًا..اتركوا لي بكراً.. أرى التردد في أعينكم..عجباً لكم، كنتم على مشارف الموت، فأنقذتكم من بين أنيابه، دفعت عنكم كل شر، وتبخلون عليّ ببكر تؤنس وحدتي حتى طلوع الشمس! سأختارها من بينكم.

يقف؛ ينفض ثوبه، يسير بينهم، يرهف السمع لخفقات قلوبهم، لارتجاف العذارى، يرى بنتاً ممشوقة القد، زرقاء العينين، نهداها يمامتان تحطان على غصن، يقبض على معصمها قائلاً:

- اذهبوا.

يسمعون لكلمته صدى مخيفًا، يرتعدون، كل في داخله يشكر الله أن الغريب اختار يتيمة، تنصرم دقائق التردد، يرهف السمع للأبواب وهي توصد بالأرتاج الخشبية، يرهف السمع للأنفاس الساخنة، يتخللها صوت

النوم من أفواه الصغار، يسكن النوم عندهم، حتى أنفاس الصباح، يخرجون إليه بثياب مبتلة بعرق العشق، يرون البكر عارية ورمح مغروس في قلبها.

أنا وحدي رأيته يأمرها بنزع جلبابها، تتأرجح البنتُ بين الحياء والحزن، أخيرًا ترضخ لأمره يأمرها بالجري إلى البيوت، تفر منه، عند أول بيت تراه أمامها، تتسمر البنت من الفزع، يدفع الرمح إلى قلبها، تسقط على الأرض، يجرجرها من شعرها إلى العراء، يأتي حرثه، الرمال ترشف دماءها الساخنة، أتراجع إلى بيت الشيخ الطاعن، يسألني:

- ماذا هناك؟

أحكي ما جرى، يغمض الشيخ عينيه قائلا:

- لا يأتي بهذه الأمور إلا الشيطان.

- الشيطان؟!

- إن كان هو؛ نحتاج لمعجزة تنقذنا يا عبيد..

بين الأرق والنوم أتأرجح، يطرق كل الأبواب بعصاه، عيونهم تسأله عن السبب، يجيب:

- اقتلوا أحفاد نوح وأبناءهم، ستتركون معي كل صغاركم ونساءكم، حين تأتوني برؤوسهم، أرسل عليكم السماء مدراراً، وأمدكم بأموال وبنين، وأجعل لكم جناتٍ وأجعل لكم أنهارًا، ثم أرحل لأرضٍ أخرى.. سأنتظر عودتكم.

قال جملته الأخيرة وجلس على حجر أمام بيت، ينظر للنساء مبتسمًا، يردف:

– سأجد ما يشغلني، إذا شعرت بالملل، سأقطع رأساً وراء رأس وراء رأسٍ.

ينفذ الرعب من الجلود إلى الأبدان ثم يستقر في القلوب، تاركاً اصفراراً على الوجوه وجفافاً في الحلوق، يعبرون الأراضي الجافة التي أمست بين ليلة وضحاها حقولاً مثقلة بالزرع، نسير كأننا ذاهبون إلى مقبرة جماعية، يشتد خوفنا لرؤية المعتصم واقفًا بين أولاده شاهراً سيفه، يتحدث الشيخ:

– إنه الشيطان.

يندفع رجل:

– إنه نبي مرسل، جاء بالخير، قضى على الجدب وامتلأت ضروع البهائم، وتراجعت الضوراي إلى الجبل، عن بيوتنا و...

أقاطعه:

– قتل نفساً بلا ذنب.

– نساؤنا بين يديه.

– سنقاتله.

قالها المعتصم. انقسم الناس إلى فريقين، رجع بعضهم إلى الغريب، بقيت مع المعتصم، لا أملك سوى حربتي، يرافقنا الشيخ.

نستعد لقتال الغريب، يحكي الشيخ، مغمض العينين، يسند رأسه إلى شجرة:

– سيدفع نساءكم إلى العائدين إليه، يطاردهن في الأزقة، داخل البيوت، لا يعبأون بحقوق الجيرة، وصحبة السنين، أو صلة الرحم، يستحيونهن، يطير الصراخ من النساء إلى العذارى، فلا مجيب لهن، نحيب الصغار يزعج رمال الأرض، يستلذ الغريب بهذا الوهج الجنوني، يخفت الصراخ في آخر الليل، يقطر نحيبًا لعيون ماتت فيها البهجة، ونما فيها الذل، فيسكنها البُوم.

يأتي الفجر بخطوات ممتلئة برمال الهم المبلل بالحزن، فيغض البصر كلما مر بمنتحبة، نتحرك مستترين بالظلام، صوت الشيخ يدور في آذاننا، سؤال في رأسي «من هذا الغريب؟» نطلق السهام على زمرة من رجاله، يجأر المعتصم:

– أيها الغريب، جئت إليك..اخرج.

يخرج الغريب مع نور الصبح، أمامه المغتصبات عرايا، الأمهات منهن يحملن الرضع، يستترن بأطفالهن، العذراوات خجالى من عريهن.

– سأقتلهن.

يغمغم بكلماته، تخرج الحيات من البيوت المهجورة، تزحف إلينا من كل صوب، ننهمك في قتلها، يموت منا بعض الرجال، يشير إلى بيت قريب من رجاله، يغمغم من جديد، يمسح وجهه:

– أيها الناس في هذا البيت المهجور.. ذهب.

يهرعون إلى البيت، ينقلون الحجارة ويخرجون الذهب، يعتلي صخرةً:

- أطعمتكم وسقيتكم وأغنيتكم بالذهب ولكم مثل هذا وأفضل إذا قتلتم هذا الرجل.

يتسلل من رجالنا الكثير لينضموا إليه، يدثرون نساءهم العرايا، يحملون صغارهم، يربتون على الظهور العارية والجافة، لم يبق مع المعتصم إلا عشرون رجلاً، نساؤهم وصغارهم بين الجيشين، الليلُ يأتي مدللا، تزحف النساء إلينا، نزحف لنأتي بالصغار، يزعق الغريب:

- ممكن أقتلكم الآن أنتم وأطفالكم، ولكني إله حكيم، سيخرج من أصلابكم من يؤمن بي، عودوا بصغاركم.

من يقف منا يقتل، عدنا زاحفين، من وقت لآخر يسقط علينا سهم، يصيب أو يقتل أو ينغرس في الأرض، يركع المعتصم على قدميه، يرفع يديه إلى السماء، نبتهل إلى الله ما بقي من الليل، قبل الفجر بقليل أقترب منه.

- سيدي، الفجر اقترب.

يلتفت قائلاً:

- هي الحرب.

نشهر السيوف، ننتظر خروج الخيط الأبيض من الجسد الأسود، جيش الغريب عشرة أضعافنا، يكسو النهار المكان بغلالة شفافة من الضوء، يرفع

الغريب صوته بكلمات مبهمة، يصرخ ويصرخ فترعد السماء وتبرق، تمطر سيولاً، ابتلت الثياب، تحولت الرمال إلى طين زلق، تنزلق الأقدام في أماكنها، مازال يزعق ملء حنجرته، يزعق بألسن مختلفة فتأبى السماءُ أن تبتلع ماءها، يحاول مرة ثانية وثالثة، تتجمع السحب فوق قمة الجبل، يكسوه الثلج، فوق الثلوج وميض؛ تزوغ الأبصار، يتحول إلى نور، يتلون بألوان قوس المطر، العيون تتابع ذلك الضوء الهابط من قمة الجبل إلى السفح على مهل.

- رجل هناك.

قالها جندي، فأجابه آخر:

- يمسك بيده عصا.

يضرب الرجل السفح، تهتز الأرض تحت أقدامنا، تتدفق المياه من ينابع متجاورة أسفل الجبل، بضربات متتالية، تسير كالطود العظيم في أخدود بين الجيشين، ليصبح نهراً، تتلاحق أمواجه، يخفت المطر، تسطع الشمس، يسير القادم صوب جيش المعتصم، رجل بين الطول والقصر، لونه بين الحمرة والبياض، يرتدي عباءة تميل إلى الصفرة، يصيح جندي:

- إنه ولي.

يعلو نفير الحرب، يبصر الغريب ذلك الرجل، يتراجع منادياً شخصًا غائبًا:

- أبي.. أبي.. أبي.

يتراشق الفريقان بالسهام، يتقي الرجال السهام بدروعهم، يصاب المعتصم بسهم، الولي يطارد الغريب، يلتقط رمحاً من أحد المصابين، ينادي الغريب، يلتفت بتلقائية، يخترق الرمحُ قلبه، وينفذ من ظهره، ينحني الولي على الغريب المضرج في دمائه، يقبض على قميصه يتحدث وهو يشير إلى مكان البكر القتيلة متحدثاً:

- رمح برمح.. وروحٌ بروح.

يتحول الغريب إلى كومة من الملح، مازال الجيشان يتراشقان بالنبال، يتراجع جيش الغريب وعيون الرجال مملوءة بالذعر، بعضهم يلقي سلاحه، يسير الولي بين الجنود متجهاً إلى المعتصم المصاب، من بين زفرات الموت يقول:

- أحفاد نوح أيها الولي.

قبل غروب الشمس نحمل بيارق النصر، نعبر النهر حاملين المعتصم لمثواه الأخير، يستوقفني الولي:

- من البحر سيأتي الساحر ليدفن كومة الملح، اضربه بحربتك في كاحله، ثم ألق عليه الشباك، واسجنه في كهف الجبل،لا تنسَ أن تلقي الذهب في البحر، حتى لا يشم رائحتك، أطلِ جسدك بدماء الذئاب ثم روث البهائم.

أسير معه لمعرفة مكان الكهف، أقود فصيلة من جنود، نغرق في روث الماشية حتى لا يشم ذلك القادم رائحتنا، ساحة القتال خاوية، تصفر فيها

الريح، الموتى تحت الثرى، كومة الملح لا تذوب، يأتي الساحر بعباءته السوداء، يركع باكيا بجوارها، أطلق حربتي، يصرخ من الألم، نلقي عليه الشباك، نجرجره إلى النهر، في البر الغربي يصرف الولي الجنود، يحدق في الساحر:

- ابن عاق

يأمرني بجره إلى الكهف، أجرجر الساحر إلى الكهف، أضيء المشاعل، أقعده على كرسي حجري، أقيده بسلاسل، أغلق الباب، لا يعرف مكان هذا الساحر غيري.

***

أسكت عن الكلام مع طلة الشمس علينا، حنونة إسراء، تتلوى بين ساعدي، تنساب كلمات الحب من فمي، لساني يداعب طرف أذنها، أهمس:

- أحبك.. أحبك.

تقبلني بعنف، تنتصب واقفة:

- أحبك..أحبك.

عند عتبة الليل يداهمنا الموج، تقف بلا وجل تفتح ذارعيها قائلة:

- ما أجمل أن تموت سعيدًا.

يقلب الموج القارب، مرة وراء أخرى أتمسك بالقارب، تتجاوزنا الأمواج، لا أعرف ستأتي مرة أخرى أم لا، يلفني الذهول بشال ثقيل، يرجع الموج إلى سيرته الأولى، أكاد أجن.

منذ دقائق كنا نرشف الحب،

منذ دقائق قالت أحبك

منذ دقائق قلت أحبك

منذ دقائق كنا جسدا واحدا

رحلت، غرست في قلبي سهم الفراق، الأيام تتلون بلون الوحدة فأمسى البحر في الليل أكثر وحشة، ظلمته أشد قسوة، يغضب البحر، أمسى المركب قطعة من خشب، الموج يدخلُ منه ويخرج، يدفعه كيفما شاء، السماء تمطر بشدة، ماء ملفوف ببرودة قارسة، كل هذا ولا أفكر إلا في احتضان آية، وأن أموت بين ساعديها، أصرخُ على ضوء البرق «أحبك.. أحبك». يهزني الرعد خوفاً، أبتهل إلى الله أن ينقذني، من غيره ينقذني؟ يتفسخ المركب من قسوة الموج الذي يتلاعب بي، تخور قواي رويداً رويداً، أناملي.

بين أناملي ماء.

من فوقي ماء

أسفل مني ماء

عن يميني

عن يساري

من أمامي

من خلفي

لا شيء سوى الماء

لا شيء إلا القاع

الماء يعلوني إلى الأبد.

وزير

(١)

ضوء في البر الشرقي، يسكن بين البيوت، أراقبه من شرفتي، يتحول الضوء إلى نار تكبر وتكبر حتى يمسي طولها خمسة أذرع، تزحف بوهجها في الشوارع، تمر بين الحقول، تسير فوق الماء، تتبختر بين أروقة المعبد، تتسور جدران بيتي، تحيط بفراشي، ترميني بشرر، أستغيث فلا مجيب، يضيع صوتي، ألمح أسفل غطائي طرف عصا، أجرها بقدمي، أُناجز بها النار، تتكوم عند طرف العصا، أبسط يدي لأتقي اللهيب، أسير بها إلى الجبل، كهف أمامي، لم أره من قبل، جوفه مظلم، ألقي النار بداخله، أوصد عليها بحجر، في طريق عودتي تتحول العصا حية تسعى، ألقيها مذعوراً، تسعى صوبي، تطاردني أينما أذهب، أفر إلى المعبد، أختبئ خلف أعمدته، تفتش عني، تراني، تزحف صوبي، تجمع جسدها، أتراجع إلى المذبح، تنقض عليّ، تعضني، تلقيني على المذبح، تعضني مرة ثانية وثالثة، تنال مني سبع مرات متتالية، صراخي لا يتوقف.. لا يتوقف.

أستيقظ والصراخ ملء فمي، أتفصد عرقًا، على ضوء القنديل الزيتي أبصر زجاجة خمر عند قدمي، أسرع إليها، أجرع قليلاً منها،أدفع ستائر مخدعي أغادر فراشي، أفتح النافذة على مصراعيها، هواء الفجر يتسرب إلى صدري، الظلام امرأة زنجية بدينة جالسة أمامي.

جاء الحلم من جديد

جاء من جوف السنين

جاء مثلما جاء منذ..

منذ خمس عشرة سنة

جاء طازجا متوهجًا

أفزعني كأني أول مرة أراه

أول مرة رأيته فزعت، أسرعت إلى النافذة، وقفت في المكان نفسه.

داسم يدخل الحجرة مندفعًا:

- مولاي.

أقص الحلم عليه، أمارات التفكير تطل من خلف ملامح وجهه، تمتزج بصوته الزجاجي:

- ولد ابن خمس سنين سيأتي لقتلك أو ينافسك على عرشك.

- والحية؟

- الحية امرأة.

يصمت مفكراً:

- كل عروس تزف إليك قبل زوجها، عندئذ تموت الحية.

- والنار؟

يقعد على الأرض، يخرج من جيبه ساقًا خشبية صغيرة، يصنع بسكينه ثقوبًا، لحظات وتتحول إلى ناي:

- عندما أعزف يا مولاي سيتبعني الصغار إلى النهر، سأعزف حتى يغمر الماء الناي.

أقاطعه:

- ويغرق الصغار.

***

طرقات على الباب مع صوت صغيراتي، أسير إليهن، الفزع يطل من نوافذ أعينهن، خلفهن يقف داسم بعباءته السوداء، أشير للصغيرات بالانصراف، تخلو المسافة بيننا، عيناه تسألان، فأجيب:

- إنه الحلم.

(٢)

زجاجات الخمر حولي على الفراش، الصغيرات يجلسن على الوسائد أمامي، على الأرض في ثيابهن البيضاء وأحزمة ذهبية، يأكلن الفاكهة، أهشهن بيدي، يخرجن مثل سرب إوز أبيض يتراقص فوق ماء النهر، وجهي ينعكس على الزجاجات منبعجاً.. مستديرًا.. مستطيلاً.. هذا الوجه البيضاوي جميل، رائع، كلما أقترب يكبر، كلما أبتعد يصغر، يصغر ويصغر، أقع على الأرض، أضحك وأضحك، زجاجات أخرى تركتها الصغيرات، هنا وهناك، أجمعها، أرصها بجوار الأخريات، أحدق في وجهي، أبصر ما وراء الوجه.

***

خلف وجهي أرض العمر، أسير فيها، أتوقف هناك عند تلك اللحظة، أنا بثياب القتال، في يدي سيف، أستعد للنزول من الجبل لملاقاة الرماديين، يصعد صالح، أحتضنه بحب، لأول مرة أحتضنه بكل هذا الحب، أحببته

أكثر عند هذه البقعة، أي بقعة؟ تلك النائمة عند سفح الجبل وهو يرفض حكم الجزيرة، أصبحت الحاكم؛ حاكم الجزيرة.

في الحقيقة كرهته، نعم كرهته، لأن أخي قتله، نعم.. نعم أخي قتله فهو الآخر، أقصد الثالث، لا..لا.. بل الرابع الذي أحب آية، الرجال أحبوا آية، أنا علمت بحب أخي لها، كنت أفكر.. نعم كنت أفكر في.. قتله.. لا.. لا كنت أفكر..أفكر.. أفكر في رحيله، يركب البحر ويرحل، أو يموت، لكن لن أقتله بيدي، سيجدونه ميتًا في صباح يوم، إن سألوني سأقول «قتله الجن». عندما قُتل صالح علمت أننا نحبها، خمنت يوما بموت صالح وجنون عاصي، أصبحتْ آية حبيبتي، فأنا الحاكم، أنا الفارس الثاني، ظل الحلم ينمو في صدري، وينمو وينمو إلى أن جاء أخي إلى البيت باحثاً عنها «أين أنت يا آية؟ أين أنت يا آية؟» يسألني عنها فلا أجيبه، يحدق فيَّ متسائلًا:

- أين آية؟

أربت على كتفه:

- تعال معي.

يتبعني إلى بيتها مزغردًا أحيانا، ومصفقًا أحيانًا.

- أتزوجني آية؟

أهز رأسي بالإيجاب، ينتشي عاصي فرحًا، يتبعني وهو في ملكوته الخاص. أتأمله رث الثياب، محترق جزء من شعره، مشوه البدن والوجه، النار أكلت

إحدى عينيه، إصبعان في يده اليسرى متصلبان. أسفل شجرة الكافور تجلس آية على مقعد خشبي، تقف مندهشة من زيارتنا، زادها الحزنُ ألقاً، وجهها مشرب بحمرة، عيناها لغز لا أعرف إليه سبيلًا، تسألها عيناي.

– أما زلت ترتدين السواد؟

أقرأ في عينيها

– لماذا جئتَ به؟

تجيب عيناي

– هذا ما فعلتهِ بأخي.

أقرأ في عينيها

– سواد أيامي من صنع يديه.

عيناها تخوضان في ذاتي، تُرى أأبصرت الحقيقة؟ الحقيقة المضيئة في أركان قلبي «جئتُ لأراكِ» في صدري صوت نائم من سنين، من سنين يهمس

« من أجلها..من أجلها «

تمسكُ بيد أخي، تحدثه:

– رائحتك كريهة.. من يحب آية؟

يرفع إصبعه، تردف:

– آية تحب أن تكون نظيفًا.

عذبة الصوتِ، تملكني بسحرها، ينصاعُ أخي لأمرها، تشير لعبديها أن يأخذاه، طفل بين أيديهم، طفل رغم أنه أطولنا جسداً وأشدنا بنياناً، أنسحب مغتاظًا، الوقت ثقيل الخطوات، مختفٍ أنا خلف شجرة بعيدة، هي شاردة في عالم أرجواني بعيد، ليتني أعرفه، ليتَ قلبي يرى الغيب ويبصر ما في قلبها، يخرجُ أخي إليها، نظيف البدن والثوب، تأمره بالجلوس أمامها على سجادة صغيرة، تحضر جاريتها مشطًا وسلة فاكهة، تمشط آية شعره الطويل، تجدله في ضفيرة والجارية تلاعبه، يقضم ثمار الفاكهة ويضحك.

«يااااه منذ زمن لم أسمع ضحكه» صوت فحيح، يا ألله! حية بالقرب من أذني، تدلت من غصن قريب، ملعونة تلك الشجرة التي اتكأت عليها لأرى آية، شيء ما يدور خلفي، شخص ما يقتل الحية، ألتفت بحذر شديد، لأول مرة أراه. رجل طويل القامة يرتدي عباءة سوداء بقلنسوة.

- الحية عظيمة .

أزدرد لعابي:

- من أنت؟

- خادمك داسم، كنت صديقًا لأخيك، أسكن البر الشرقي.

أمد يدي له:

- أنت الآن صديقي.

يتحدث بإجلال

- بل خادمك، فأنت الحاكم.

يصافحني وأنا أسأله:

- لماذا جئت إلى هنا؟

- كنا في جنازة، استبد بي التعب فنمت على الجانب الآخر من هذه الشجرة، وأنا أتقلب في نومي لمحتها تتحرك في حذر صوب شيءٍ ما، درت حول الشجرة، بينها وبين عنقك قيد إصبعين أو ثلاثة، استللت سيفي، وطعنتها مرتين، مرة في المنتصف لتبتعد عنك، والمرة الأخرى فصلت رأسها عن جسدها، يومئ إلى الشجرة القاعد تحتها أخي ينعم بابتسامات آية:

- أتحبها يا مولاي؟

ألوذ بالصمت، يرافقني أينما أذهب، شيدت له بيتا قريبا من بيتي، لا أدري، حقيقة لا أدري لماذا أجبته بعد بضعة أيام. ربما.. ربما لأني كلما نظرت في عينيه أبصرت السؤال، أطلق داسم زفرة طويلة؛ الأصح ممطوطة، وقال:

- عليها أن تختار واحداً.. أنت أو خليل.

«ماذا لو اختارتْ خليل؟» أأقتله؟ لا. سأتدبر الأمر. لن أُجَنَّ مثل أخي. ربما تختارني.. كيف وأخي قتل صالحًا؟ إنها تحسن إليه. لمّ؟ شفقة؟ عطف؟ لكن قلبها لم يغفر له، الأسئلة تلعب برأسي، تلعب وتلعب وتلعب، نذهب

إلى خليل، لماذا يفزع من أمر الزواج؟ بل لماذا يرفض وبين حروف كلماته رائحة حبها!؟ يحبها وهي لا تعرف، يحبها وينكر، أما أنا أحبها ولا أنكر، أحبها وسأخبرها، أمتطي حصاني، يرافقني داسم، نتوجه إلى بيتها، أطرق الباب، يخرج إلينا العبدان ليخبرنا أحدهما:

- مولاتي خرجت.

- إلى أين؟

- لا أعرف؟

أخرج من جيبي قطعة ذهبية.

- اصدقني أين ذهبت؟

ينحني ليلتقط قطعة الذهب، يقلبها بين يديه، يجيب:

- أرسل لها شخصٌ ما حمامة، خرجت مع جاريتها هجير، اتجهتا صوب القلعة.

في لحظة استل داسم سيفه وأطاح برأس العبد، نظر إليّ قائلًا:

- من يبع سيدته بقطعة من ذهب فثق تماماً أنه سيبيعك بقطعة من نحاس.

يشير إلى العبد الآخر:

- ادفنه.

نمتطي الحصانين، نسير إلى القلعة، عند منتصف الطريق يخرج خليل محتميًا بعبيده، يشهرون سيوفهم، أبصر رماةً فوق الأشجار على جانبي الطريق، يصرخ خليل بعصبية، لا.. يصرخ بعشق، لا.. يصرخ بجنون، جنون يهتز منه الجسد النحيل.

جرعة جديدة، أين الزجاجات؟ كلها فارغة.. هذه وهذه وتلك! آه هذه بها قليل من الخمر، رشفة لا بأس بها.

حاصرت القلعة بكل قوتي، قتل جنودي العشرات من رجال صالح وخليل، هدمنا الباب الخارجي. لا شيء سوى القتلى، أمرت بقتل الجرحى، أفتش القلعة، لا شيء فيها، سرداب ينتهي بكهف، هناك من زحزح الحجر، أدخل إلى هناك، في المنتصف بركة مائية، تولد كلما اقتربت منها، تموت كلما ابتعدت عنها، جوف الكهف معتم، تطير منه الخفافيش، لا وقت لدي، هناك خفافيش، إذاً لم يدخلوا إلى هنا، إلى هنا تنتهي رحلتي، هنا يموت حبي، حبي لا يموت، ما أوجعني، إنها فضلت الموت على الزواج مني؛ إلى هذا الحد تكرهني، إلى هذا الحد تكرهني؟! هرب خليل، ولماذا هربت إسراء؟ لماذا هربت أختي؟ تحب خليلًا.. تحب خليلًا، أضحك وأضحك، يتأملني داسم مستغربًا من ضحكي، إسراء تحب خليلًا، خليل يحب آية، وآية تحب صالحًا، وصالح مات، بمن ستتزوج يا خليل، أتتزوج المرأتين، أم امرأة واحدة؟

أطل من خلف سور القلعة، شبحان يتحركان في الظلام، امرأة يتبعها عاصي، عاصي يستره الظلام، الظلام ثوبه، تنزع المرأة ثوبه قطعة وراء أخرى

تلقيها عليه، أخيراً يقبض عليها، يبحر في أنوثتها، تهدهد خشنوته، يستكين وحشه، يستعد لشوط و شوط، تتركه نائما في العراء تلملم ثيابها على ضوء القمر، تتراقص بين قطعة و أخرى، أهبط إلى هناك، ألقي بردتي على عاصي، شخيره يدغدغ سكون الليل، أعود إلى بيتي منهكًا، عشرات الموتى ناموا أسفل الأرض في هذه الليلة، ليتهم يدفنون قلبي النابض بحبها.

جرعة أخرى.. لا بل رشفة خاطفة تثلج الصدر وتشعل نار الماضي البعيد، الرجال يحطمون الصخور من الجبال، تحت لهيب السياط ينقلونها لبناء السور العظيم، السور يبدأ من القلعة ويدور حول كل أرض البر الغربي، يشيدون المعبد، بيوت الفتيات، آه من الفتيات الصغيرات، اللاتي يرقصن فوق العنب عرايا، فتيات المعبد، فتيات جئن من عمر اثنتي عشرة سنة، يتجولن في بيتي، يحرسنني في الليل، يطهين في النهار، يتعلمن الرقص في الليل، ينظفن بيتي في النهار، يتسامرن على هذه الوسائد في الليل، يعددن الخمر في النهار، عندما تبلغ البنت ست عشرة سنة، تذهب إلى البر الشرقي حيث عائلتها، بينهم يجلس شاب في انتظارها، ماذا يفعل؟ أنا سأفعل، أنا الحاكم، أنا حاكم الجزيرة، أنا أملك كل ما عليها، وليس لي حق في هذا الزواج إلا الليلة الأولى، تأتي العروس تشاركني الخمر، تشاركني الليل وترحل مع غروب اليوم التالي، تبقى ليالي هناك مع من اختارت، أحيانا يتسللن في الليل ويذهبن إلى عاصي، لا أعرف لماذا عاصي؟ ربما.. ربما يبحث عن آية، لا.. بل لأنه لن يتكلم.. أنا أيضا لن أتكلم، البنات سوف يتهامسن

عن المرأة التي جاءت للحاكم، وحتما سيعرف زوجها، يكفيني متعة الليلة الأولى، المرأة لن تنسى رجلها الأول، والرجل لن ينسى امرأته الأخيرة، هذا الفارق بين الرجل والمرأة..

النساء لم يحببن داسم، لم تزره امرأة واحدة ولو عجوز قبيحة، لم يطلبهن داسم، لم يسرقهن من الطرقات، دائما قاعداً في بيته، بيت من حجرة واحدة معتم ليل نهار، متدثراً بعباءته التي لا تفارق جسده، ينام وعيناه المفتوحتان متوهجتان، مع أول الليل تبتعد الفتيات عن بيته، يرسمه الخوف في رؤوسهن خارجًا من التنور بثيابه السوداء وعينين ناريتين، لم يره أحد يستحم يومًا، كثيراً ما يتكلم مع نفسه، أقسم بعضهم أنهم شاهدوه بأعينهم يتحدث إلى الدواب والأشجار.

لعبت الخمر يوما برأس فتاة؛ فتجرأت ودفعت باب بيته، وسألته:

– لماذا تخاف النساء يا سيدي؟

شرعت في نزع ثيابها ببطء، وتصدر تأوهات الشوق،خرج داسم من ركنه المظلم، أمسى وجهه جمرة متوهجة،ارتعدتْ، أوصدتْ الباب، بضربة يد واحدة قسم الباب إلى نصفين، حدق في الفتاة، فتبولت في ثيابها، في الصباح كانت مشنوقةً إلى جذع نخلة، لم يجرؤ شخص على الاقتراب منها، تحولت جثتها إلى هيكل عظمي ثم إلى تراب، عاد الناسُ إلى الطريق، بيته الآن جزء من الليل.

جرعة من الخمر.. نعم جرعة هذه المرة، جرعة مثل تلك الجرعة التي ألقيتها في جوفي والناس يحتفلون بالعيد، عيد سيدنا نوح، نوح صاحب هذه الأرض.. أول من سكنها من الرجال، قتل الوحش القابع هناك في الجبل، أنا من نسله، الباقون كانوا عبيداً له، علمهم زرع الأرض، علمهم صيد البحر، لا ضير أن نحتفل به يوما في العام، نجرع الخمر، نذبح ما نشاء من الحيوانات على المذبح، المذبح الساكن في نهاية المعبد، تتسلل النساء للبحث عن عاصي، بين الحقول، بين المدافن؛ أينما يجدنه يهرعن إليه، يرفع جلبابه، و...نعم و... قبل العصر يطاردهن بالحجارة صارخا فيهن، نبحث عمن يطاردها، للأسف يطارد الكل؛ النساء والأطفال والرجال، لماذا أضحك؟ سؤال انفجر في رأسي، أيذهب بعض.. بعض الرجال إليه؟ أستلقي على قفاي، نور السراج المتراقص على نسمات الليل، نسمات الليل المتسللة من النافذة تثلج صدري الخشن، صدري الخشن المبلل بالخمر المعتق، الخمر الذي أجرعه في عصر اليوم، اليوم الذي أنتظر فيه العروس، وأنا أجرع الخمر سيكون رَكب العروس هناك في البر الشرقي، يسير صوب المرسى الخشبي على صوت الزغاريد وضربات الدفوف، الزوج يودع زوجه بنظرات يظللها انكسار، يعلم أن عروسه ستعود بعد غروب الغد، سيأتي وحيدًا، تسير خلفه إلى داره، لن يسأل ولن تحكي ما جرى في بيتي، الأيدي تصفق فرحةً، القارب يتبختر فوق صفحة النهر، نسمات رطبة تداعب ثوب العروس الفضفاض، النسيم ينام على صدرها الناهد، نهرٌ هادئ، المجدافان يشقان الماء بكسل وتراخٍ، يُقبل القارب مرسى البر الغربي قبلات خاطفة ثم ينام في

دعة في حضنه، يربط النوتي الحبل في وتد مغروس في قلب الشاطئ، تستند العروس على يد النوتي الخشنة، وجهها مختفٍ خلف طرحة بيضاء شفافة، يتوارى جسدها تحت ثوب أبيض، فتيات المعبد ينتظرن وصولها، خلفهم جمل قاعد، يعلوه هودج، تضرب الدفوف، تزغرد الفتيات، يلوحن لمن في البر الشرقي فيرحلون، تمسك إحداهن بيدها:

- على مهلك.

تدخل الهودج، يتحرك الجمل وقلبها يخفق خوفاً، يسير على مهل حتى بوابة أرض الولي، تختلس النظر إلى الأرض الشاسعة، أشجار الجازورينا و الكافور على الجانبين، مدقات ترابية تفصل بين مساحة زراعية وأخرى، أمامها الآن المعبد بأعمدته السامقة، أرضه مبلطة بأحجار مصقولة، تشم العروس رائحة الفاكهة مختلطة بعبير الزهور، تود لو يتوقف الجمل عن السير لتلتقط بعض الثمار وترجع بها لعريسها المنتظر هناك عند البر الشرقي، ها هي بيوت فتيات المعبد، بيوت من طابق واحد بيضاء اللون في وسط السقف قبة، القبة فوق صحن البيت أسفله نافورة على شكل حيوان بري، صنعته بيدي، يتدفق رذاذ الماء من الفم يلطف حرارة الصيف، يتوقف الجمل أمام بيتي، ترفع رأسها لترى بيتاً من طابقين، أبيض اللون، تدخل بوجل إلى صحن البيت، يقشعر بدنها من الهواء البارد، تشهق فزعة لرؤية داسم أمامها، يحدثها بصوته الزجاجي:

- مولاي ينتظرك.. اخلعي نعليك، اتبعيني.

تصعد الدرج، برودته تلسع باطن القدمين، فترتجف، تحدق في أصابع قدميها المخضبة بالحناء، مازال جسدها متوهجاً بأثر إزالة زغب العذرية. وهي هناك في البر الشرقي بين أترابها، ينزعن ثيابها، وبين أصابعهن، تلك العجينة اللدنة، تمتزج بضحكاتهن، يحملنها إلى نصف برميل خشبي، يدلكن جسدها بالصابون المعطر، يسكبن الماء على رأسها، تلتقط أنفاسها بصعوبة، ثم يزججن الحاجبين، يخرجن المرود من المكحلة، يكحلن العينين و فوق الجفنين، سألت إحداهن عن الكحل، تربعت غير مبالية بعريها و قالت:

- نأتي بحجر الإثمد، نعرفه بلونه الفضي، وملمسه، ونضعه قليلاً على النار، حتى يتفتت، ثم نتركه في خليط من الماء، و زيت القرنفل، و أشياء أخرى، تختلف من ببيت لبيت، ثم يسحق تماما وينخل في قماش ناعم، ونضعه في المكاحل، ويغلق جيداً.

لحظتها أتكأت على مرفقي متسائلاً:

- الكحل لكن زينة ، فلم يكحل عين المولود ذكراً كان أو أنثى؟

تضحك؛قائلة:

- لحمايته من الحسد وشر العين.

ثم تخرج من بيتها والنساء يصفقن ويزغردن، رائحة البخور تتسلل إلى صدرها، النائم على حمالة مشدودة بأربطة إلى الظهر- هذا ما روته امرأة

أخرى قبل رحيلها - تفتح عينيها، أمامها مخدع يتوارى خلف ستائر زرقاء شفافة، صوتي يناديها:

- تعالي يا صغيرتي تعالي.

تسير بضع خطوات، أردف:

- فُكي ثيابك.

تتخلص من بعضها على استحياء، تتلألأ في عيني، أسترسل.

- كلها.. كلها.

تتعرى تمامًا، تخطو مرتجفة، أصابع قدميها ترتطم بسلم خشبي من درجتين بجانب الفراش المرتفع، تصعدهما، تزيح الستارة على مهل، السرير واسع، حتما سيومض في رأسها، الفرن القابع هناك في دارها هو فراش العائلة، البعوض يلدغ الأبدان النحيفة، المبتلة بعرق النهار، وأنفاس برائحة الجوع، هنا العطور والوسائد اللينة، يتوسط السرير طبق فاكهة وزجاجات الخمر، أصب كأساً لنفسي، أميل لاحتضانها، تلمح بجواري زجاجة فارغة، أصابعي تعزف على جسدها، أرشق سهمي في عودها الريان، أرشف من عسلها، أسقط بين الزجاجات. أغفو جزءً من الليل، أستيقظ، يدي تمسك بزجاجة صغيرة، زجاجة الزيت المبارك، يدي الأخرى تلمس نهداً عاريًا.

(٣)

زارني الحلم ثلاث مرات متتالية في الأسبوع الماضي، أرسلتُ داسم ليأتي بالخبر اليقين؛ ليلة البارحة، على زيت القنديل قرأ داسم تقريره:

«مولاي وزير.. في البر الشرقي فتاة دون العشرين أو أكبر بعام أو عامين، هذا لا يهم مطلقًا، المهم ما تقوله، تقول الفتاة نهى إنها ابنة خليل، خليل تزوج من أختك إسراء، بعدما وضعت إسراء الابنة رحلت معه تاركة الطفلة في رعاية امرأة عجوز، وهي تملك خاتم أمها، هذا أيضا لا يهم كذبه أو صدقه؛ ما يهمنا يا مولاي أنها تسعى لحكم الجزيرة، والبحث عن صحف النجاة التي عكف صالح على كتابتها، نجحت نهى في جمع بعض الشباب، الذين يطمعون في الفوز بقلبها، فهي تنادي بالحرية والعدل، وترفض حق الليلة الأولى، وأن القتال وحراسة الحاكم مهمة من مهام الرجال، جيشها من مئتي شاب أو أزيد بقليل».

أسأل داسم:

- كم عدد فتيات المعبد؟

- يفقن هذا العدد.

- سنخرج لقتالها غدًا.. كيف لم تأتِ لخدمتي؟

- تنكرت في ثياب الرجال.

جاء الغد بصباح مشرق، أعبر مع جيشي النهر إلى البر الشرقي، الفتيات يضربن الناس بسياطهن؛ فيركعوا حتى يمر الركب، الذي لا يبالي بلهيب النهار أو الذباب الملتصق بالجدران،أو الدواجن التي تنقنق فزعة، الكلاب تنبح ثم تختفي، الغبار يتصاعد ساخنًا ثم يخمد ليصعد من جديد، في السوق تتوقف حركة البيع والشراء، يذهلون لمرور الجيش، يختلسون النظر للفتيات اللاتي يحملن المحفة ، خلفهن سرية مدججة بالسلاح، تنتصب القامات كلما اختفت رائحة الزيت المبارك، ذلك الزيت الذي يقتل الشيخوخة، ويفسد السحر، ويمنح البركة حتى الموت، تخفت الرائحة تدريجيًا، ينفك الناس من أسر الانحناء، دموع الألم تبلل الوجوه، تتحسس الأيدي لهيب السياط، يجتاز الجيش البيوت تمامًا، يتوقف عند أول الشاطئ، أحدق في جيش نهى القابع على مرمى البصر:

- جيش من الحفاة والعراة.. متى جمعتهم؟

يجيب داسم:

- في الشهور الماضية.

- يا بناتي ضعن الرحال هنا.

ينهمكن في نصب الخيام وإعداد المواقد، يردف داسم:

- سيدي إنها الحرب.

- أتظنها تحلم بعبور النهر؟ عشرون عامًا من التعب والجهد، شيدت خلالها سوراً عظيماً يحيط بالأرض والبساتين.

- أجمل ما شيدت يا مولاي في العشرين سنة الماضية المعبدو البيت والتماثيل التي تزينه.

- لا تنس بيوت فتيات المعبد.

- وبيتك.

أبتسم.

- وبيتي يا داسم، أحب فيك إخلاصك.

يحرك داسم يده في الهواء:

- وأصابعي التي تصنع الزيت المبارك.

- إلى الآن لم تخبرني كيف تصنعه؟

يبتسم داسم.

- إنه ترياق خاص يا مولاي.. أتسمح لي بالانصراف؟ فقد نال مني التعب.

أضحك.

– عجباً لك يا داسم، كلما سألتك عن سر الزيت المبارك تتملص وتذهب، اذهب..اذهب.

يتراجع بضع خطوات، يقفز من فوق حصانه، يدخل إلى خيمته ذات اللون الأسود.

صراخ من كل صوب، عشرات الشباب يهاجمون جيشي، أستل سيفي، الفتيات يطلقن السهام، يشاركن في الذود عني، يخرج داسم من خيمته، يمتطي حصانه، في يده رمح أسود، يقاتل بلا هوادة، تسرعتْ نهى في القتال، لو انتظرت إلى الليل، لفازت بالمعركة، يتساقط القتلى، تؤلمني صرخات الفتيات، قبل الغروب كُتبَ لي النصر، ها هي «نُهايتهم»، أعني نهى، مقيدة بحبل، مثخنة بالجراح، تبكي من وخزات الفتيات، خلفي عشرات القتلى والجرحى، أمهات تنوح على قتلاهن، الرجال يقذفون نهى بالحجارة، نتجاوز البيوت، نعبر النهر.

مع الليل، مقيدة على فراشي، عارية البدن، بين نهديها سلسلة، توقفني بصوتها:

– هذا خاتم أمي.

تداعب أصابعي النهدين، أقلب الخاتم، خاتم إسراء ألقي عليها دثارًا.

– أنت ابنة أختي؟

- نعم.

- وحملتِ السيف لقتلي!؟

أنادي داسم؛ الذي جاء مهرولا:

- هناك في القلعة، سرداب ينتهي بكهف، قيدها هناك، وأتركها بلا ماء أو طعام لتموت بعيدًا عني، اذهب بها.. اذهب.

تزف الفتيات إلى البر الشرقي نبأ احتفالي بالنصر، ينتشر الخبر مع دقات الطبول، مع حفنات القمح أو الشعير، أو بعض ثمار الفاكهة. بعد الظهيرة، تنقل المراكب السكان إلى المعبد، يقدمون القرابين، تستقبلهن الفتيات بأطباق الفاكهة، تعزف الموسيقى، تمتد الولائم، في هودج تأتي العروس، عروس الليلة سيختلف مذاقها عن أي عروس . تراق الخمور، داسم يحرس بابي، هو الوحيد الذي أثق فيه، أتأمل الحفاة العراة يشربون خمري، يأكلون فاكهتي، ثم يحمل فتيانهم السيوف لقتلي، غداً سأحرق بيت كل من شارك ابنه في هذه المعركة، سأعلق الرجال على المشانق، سيحلفون بنعمتي وسيحلفون بنقمتي، العروس تسعل برقة، دون أن ألتفت:

- اصعدي إلى الفراش، اخلعي كل ما عليك وانتظريني.

أقعد على حافة النافذة أتأمل وأجرع الخمر، لم أخف يوماً من الموت، ربما لأني رأيته رقيقًا عذبًا؛ وهو يرافق عبيد إلى مثواه الأخير، كان عبيد جالسًا أسفل شجرة آية، ونحن نحصد القمح،متكئاً على منسأته، يجمع بعض

العصي من الأرض، يكسر واحدة ثم ثانية ثم ثالثة ثم رابعة، يكسر سبعة عصي، يجمع سبعة أخرى يحاول كسرها فلا يقدر؛ قال جملته الأخيرة:

- لقد كبرت.

تفرقت العصي، تحطمت تحت أرجلنا، ثم مات، في موكب جنائزي من البشر و الحيوانات، تطير الطيور فوق رؤوسنا، تقفل الحيوانات إلى الغابة.

جاء الليلُ، لا أدري لماذا جاء بهذا السواد الثقيل، أأرتدى ثوب الحداد على الموتى؟ أمازلت النساء تشتهي عاصيًا؟ أين هو؟ اختفى عن عيني، أثقلت الخمر رأسي، الزيت المقدس نفد، لم يبق في الزجاجة إلا القليل، يغالبني النعاس، أخلع ثيابي، أتمدد بجوار العروس، يجرجرني النوم إلى عالمه لبعض الوقت.

أفيق من نومي، زجاجة في يدي، أرشف قليلاً منها، تبحث أصابعي عن عروسي، فراشي خالٍ من جسدها، صوتها يتسلل إلي، آهات العشق، أنات الحب، صوت رجل، رجل يهدر بكل قوته، أزيح ستارة الفراش، على الأرض عاصي يهدر بجنون فوق العروس، تفزع لرؤيتي، تصرخ، أنقر كتف عاصي، يلتفت صوبي، أسأله:

- ماذا تفعل؟

- أتركني، إنها آية.

- لا.

يصفعني؛ أصفعه، يلطمني، العروس تحاول إزاحته، يتمسك بها، أركله من فوقها، لكمات متتالية، يحملني ويلقيني بعيدا عنه، تحاول العروس الفرار، يلحق بها يلطمها، ينكب فوقها، يخور، يهدأ. مازال راقدًا عليها، أستل السيف، بضربة واحدة أفصل الرأس عن جسده، طعنة إلى قلب العروس، صرختها تُشنق على نصل السيف، الدماء تتدفق من الجسدين، يدخل داسم، الرأسان بجوار قدمي،مازال الدم يتدفق؛ أسأله غاضباً:

– ماذا يجري؟

– الزيت لا يخلق من عدم.

– أتقصد؟

يهز رأسه بالإيجاب.

– منذ عام كامل، يبتلعك الخمر، يدخل عاصي، أقنعت البنات أنه من الشجرة نفسها، سيمنح العرائس البركة، قبل أن تستيقظ، تتسلل العروس إلى الفراش، وتنعم أنت بأحلامك.

أحاول قتله بالسيف، يقبض على ساعدي، ينظر إلىّ بشرر يتطاير من عينيه يضربني بقوة، أتدحرج على الأرض، يركل السيف بعيدا عني، ينهال علىّ ضرباً باليمين والشمال، يركلني بقدميه، تدخل الفتيات، يأمرهن بغضب:

– قيدن الحاكم، قتل أخاه والعروس.

مقيد أنا، جالس على الأرض، داسم يطل من شرفتي على الناس.

– أيها الناس الشمس لم تشرق إلى الآن، أتدرون لماذا؟ لأننا سكتنا عن الطاغية وزير؛ فحرمنا الله من شمس العدل والحرية، لن تشرق الشمس إلا بالعدل، لن تروا نور الصبح إلا بالعدل، لن يكون العدل إلا بالقصاص من القاتل، هناك في البر الشرقي عشرات الأمهات الثكالى، هنا في البر الغربي عشرات الموتى وسجينة في كهف، لن تصدقوني، سأترككم ثلاثة أيام، قبل نهاية اليوم الثالث لابد من القصاص.. القصاص وإلا أصابتكم اللعنة.

لم تشرق الشمس، الشموع في أركان المعبد، النساء تنوح، الصغار يبكون، الفتيات يرفعن أيديهن للسماء، القرابين تقدم لله، المذبح مبلل بالدماء، أتابع كل هذا من نافذتي، على أضواء المشاعل ذهبوا بأخي والعروس إلى المقابر، حزن يستقر في داخلي بلا منافس، أبكي عاصيًا، تقاسمنا الكثير معاً.

***

لا أدري السبب في تلك الصورة التي تزين معبد ذكرياتي معه، يصرخ والنار حوله من كل صوب، الدموع تبلل وجنتيه، أتقي النار بدرعي، جسده ملتهب، أدفعه أمامي، نخرج من النار، أزعق في الرجال:

– أحرقوا جزءًا من الزرع واطفئوه، نقطع عليها الطريق.

أصحبه للبيت، يأبى العلاج، يجري بحثاً عن الهواء، يتقلب على الأرض، يغيب في جوف الظلام، الدخان يعشش في أركان البر الغربي، رائحة لحمه

المحترق تملأ صدري، أبكيك الآن يا عاصي، هناك ألف سبب لهذا البكاء المتواصل، لم أقصد قتلك، ما يؤلم الرجل أن تستدعيه امرأة لأنوثتها ولا يستطيع، هناك فرق يا أخي بين الرغبة والقدرة، هذا الفرق أوجعني، يلطمني به داسم، يقتلني وهو يقول الحقيقة، الزيت لا يخلق من عدم، لا يخلق من عدم، تلفني الهموم والذكريات بشال أسود ثقيل.

***

أفيق على يد داسم، تقبض على ذراعي، يدفعني أمامه، عشرات بل المئات من الوجوه تطل على جسدي الهزيل، منذ ثلاث ليال لم أذق إلا الماء وقليلًا من الزاد، ثلاث ليال لم أستحم، ثلاث ليال مقيد وسجين في حجرتي، رائحتي لا تطاق، حتى التماثيل التي صنعتها بيدي تراقبني، إلى أين يقودني هذا الداسم؟ يبرق الحلم في رأسي، وأنا بالقرب من المذبح أدير رأسي إليه، يحيط به الرجال:

– أنت الحية..أنت الحية.

يمددونني فوق المذبح، يقيدونني، تنهار مقاومتي، يستل خنجره، أصرخ:

– الحية..الحية.. الحية.

طعنته الأولى

حارقة.. بكل دموعي.. بكل دمائي.. بكل ما جرعت من خمر السنين.

هدير من صياح الناس،

الطعنة الثانية،

أصرخ من شدة ألمي،

من وجعي،

الثالثة

شيء ما يخترق جسدي ويخرج،

الرابعة

يُظلم العالم من حولي،

الخامسة أمسى صراخ الناس وصياحهم خافتًا،

السادسة والسابعة سواد يمتلكني.. سواد يمتلكني..سواد يمتلكني.

نهی

(١)

هُزمتُ ومعي الحق، تساقط عشرات الشباب من حولي، أطياف الموت حاصرتني من كل صوب، مَنْ يهرب تطارده الفتيات بسهامهن، يتلاعبن به حتى يموت، لا أسرى، جنودي قتلى، قتلى فقط، السيوف مصوبة نحوي، السيوف مبللة بالدماء، الدماء طازجة، تتساقط قطراتها على الرمال، الرمال الساخنة،

أين أنت يا ألله؟

أين أنت يا ناصر المستضعفين؟

أين أنت يا عبيد؟

أين أتباع الولي؟

هل ما أحمله في صدري أساطير أم حقيقة؟

أين أنت يا جدي؟

لم أرتكب جريمة واحدة، لم يخفق قلبي لشاب، ارتديت ثياب الرجال هربا من خدمة الحاكم، من قتلوا منذ قليل، هم من ناصروني أمام الباطل، أي قدر هذا؟! ينصر الباطل ويهزم الحق!

تقترب فتاة، تقيد معصمي، يقيدونني بحبل خلف حصان الحاكم، يسير الحصان على مهل، الفتيات يوخزنني بنصل خناجرهن، يعرقلنني بأقدامهن، أكشر عن أنيابي، يتراجعن ثم يبدأن من جديد، نمر بقرى البر الشرقي، أم تنوح على ابنها القتيل هناك، **وأخرى تضع الرمال على رأسها، هناك فوق رمل الصحراء، شهيد معركة لم تستغرق ساعة من نهار، يقذفني الرجال بالحصى، تضحك فتيات المعبد، هل يموت** الحق بموتي؟ هل هناك من ينصره بعد اليوم؟ ماذا خلف هذا اليوم؟

اليوم كان في حلمي مكللاً بالنصر، وقتل داسم و وزير، أحلم بالعدل بين الناس، لا فضل لأبيض على أسود إلا بالحق، لن ينام صغار جوعى، لن تنكسر نظرات الفتيان وعرائسهم تذهب إلى بيت الحاكم، ينال قطفة العسل الأولى، ثم ترجع مع الغروب اليوم التالي،

أيها الناس؛ أعشقتم الذل والاستكانة؟

أيها الناس ؛لما لا تكسرون قيود الذل؟

أيها الناس ؛ مات ألفان وأحد عشر شابا في ثماني عشرة فرقة

أيها الناس؛ الأرض مروية بدماء فتيانكم

ماتوا وهم زهور في بستان قلبي.

دمائي تسيل على خدي طازجة، أقع على الأرض، تساعدني فتاة على الوقوف، تجرحني بخنجرها ضاحكة، ترجع لخليلاتها، عبرتُ النهر بجسد مثخن بالجراح، البر الغربي وديع، به نسمات تهدهد جروحي، لو تعلم يا وزير أني البنت الوحيدة التي لم تطأ البر الغربي إلى الآن. ينفرط عقد البنات، خلفي ثلاث منهن، يصعدن بي الدرج، يمزقن ثيابي، يقيدنني على فراش الوزير، خاتم إسراء في قلادة، الخاتم يرقد بين نهدي، يدخل وزير، يداعبني، أعلم ما سيُقدم عليه، أكذب، نعم أكذب.

- هذا خاتم أمي.

كذبتُ لأنجو، يسرن بي إلى الكهف، الكهف النائم أسفل الجبل.

أسفل الجبل أقف وحيدة في ظلام خانق، تصحبني جروحي، تصحبني أناتي، دموعي؛ القمر يرسل نوره إلي، ضوء فضي خافت يكسو المكان، بحيرة في المنتصف كلما تقدمت تتسع، أهبط إلى الماء، تؤلمني جروحي، فأرتجف، أسبح وأسبح، تسري في جسدي رعشة، ينفجر بكائي، يتدفق ويتدفق كأني ابنة خمس سنين.

ابنة خمس سنين تحملني الجدة لحجرة بعيدة، ترجع لخبيزها، أبكي حتى يغلبني النوم، أصحو على صوتها ورائحة الرغيف الطازج، تضمني لصدرها الناشف.

أي امرأة كانت

كانت سمائي وأرضي

أرضي المزروعة بصوتها الحكاء

صوتها الحكاء قال لي

***

قال لي

بعد زيارة خراط البنات.

– كنت جارة لبيت أم هجير، رحلوا ولم يبق أحد في البيت، سمعت قبل الغروب صوتا هناك، صعدت سقف داري، انتقلت منه لسقف دارهم، هبطت في حذر، رأيتها تضيء السراج، تبكي بشدة، أخاف أن أحدثها فتفزع، أو ألمسها فتصرخ، علقت السراج استدارت، شهقت، عرفتني، أضمها لصدري، أجهشتْ في البكاء، أخبرتني بما جرى في الكهف، تزوجتْ من خليل لثلاثة أيام وجاءت، أطفأتُ السراج؛ قائلة لها:

– لو علم أحد بعودتك لأخبر الحاكم، سنعود إلى بيتي، ستبقين معي، ستعيشين في حجرة الخزين، لا يعلم أحد بك، حتى أتدبر لك أمرا.

عاشت معي، بطنها تكبر يومًا وراء يوم، وجاءها المخاض في الشهر السابع، جئت إلى الدنيا ابنة سبعة أشهر، ماتت أمك في يوم سبوعك، في حجرة الخزين حفرت لها قبرا، فكرت أن أدفنك معها، لكني خفت الله،

واريتُ أمك التراب، خرجت بك مسترة بالليل، خرجت من قريتي كلها، انتظرت شروق الشمس، رجعت بك، قلت لأهل الحي إني وجدتك عند مدخل القرية، وأنك رزق من الله، تأملك الناس، أقمنا لك سبوعاً جميلاً أضأنا سبع شموع، صنعنا عقدا من سبع حبات من الفول الناشف، مررت فوقك كأني أمك سبع مرات، رضعتِ من عنزة خصصتها لك، ما اسمها؟ سألتْ امرأة، هززت كتفي جهلًا، ضحكن، قلت لصخب النساء والأسماء التي تتساقط من أفواههن، أسميها "النهى"، "ثقيل على اللسان" قالت النسوة. فقلت "نهى"، أملاً أن تكوني نهاية أيام الحزن والشقاء.

أخرج من الماء، أتمدد على الأرض، في استرخاء تام، أتدثر بالظلام، ربما مر نصف نهار أو أقل، عذوبة الماء تجذبني إليها، أسبح، شيء ما يعض قدمي، أغطس تحت الماء، أسماك تسير في كل صوب، أقبض على واحدة، ألقيها على الشاطئ، أصطاد ثانية وثالثة، أطهو السمك على النار، ماء وطعام ماذا أريد بعد؟ بيده الناعمة يجرجرني النوم إلى حضنه الدافئ، استمرئ الراحة.

أناديها دائما بـ "جدتي.. جدتي"، صفير خافت، أنادي "جدتي.. جدتي"، أشير صوب النافذة، ترهف السمع، تغادر البيت، تسأل في الشوارع عن السبب، أخبروها أن داسم يمر في الشوارع، يعزف على ناي، فيجمع الذكور ما بين ثلاث و سبع سنين، يسيرون بلا وعي، خلفهن الأمهات يلطمن الخدود، يمزقن الجيوب، يواصل سيره، تحرسه فتيات المعبد، تسرع صوبي، تخبرني بما سمعت، تضعني داخل التنور، تتفصد عرقًا، دقات قلبها تتلاحق،

من النافذة المواربة تتسرب كلمات النسوان الفزعة، الفتيات يفتشن عن الصغار، ترهف لصوت الناي، صوت حاد، لحنه غريب، تربت عليَّ، الخوف يلفني في شاله، تقبل رأسي، أهدأ قليلاً، صوت أقدامهن يرتفع، يقتحمن الدار:

- علمنا أن عندك طفلًا صغيرًا.

- حفيدتي.

يتأكدن من الأمر ويرحلن، أمام الباب، داسم يعزف على الناي، يرحل بعد لحظات، يتبعه الأطفال المسحورون بصوت الناي، تخرج الفتيات إلى بيت آخر، تحملني الجدة إلى النهر، عشرات النائحات، الخوف يسيطر علينا، يسير داسم إلى النهر، متجها من الشرق إلى الغرب، كلما حاولتْ أم جذب ابنها، ضربتها الفتيات بالسياط، فتسكن مكانها من قسوة الألم، تبلل الثرى بدموعها، أخريات يحملن التراب على رؤوسهن العارية، ينزل داسم النهر يتبعه الصغار، يشتد النواح، تصنع الفتيات حاجزا بأجسادهن، أقواسهن مشدودة على السهام، من تسول له نفسه السير صوب النهر سيموت، تنوح الأمهات، يتابعن داسم، يغوص على مهل، فقاعات كثيرة، صراخ هستيري، يغرق المسحورون، **صوت الناي يواصل تردده، تختفي الفقاعات، يخرج وحيداً من تحت الماء، مازال يعزف على الناي، يصل إلى** البر الغربي، يلوح للفتيات، يركبن المراكب إلى البر الآخر، النهر ساكت، موجه حزين، يحاول بعضهم إخراج الصغار الغرقى، الآباء يحملون صغارهم إلى المقابر، كثير من

الصغار حملهم النهر بعيداً، مازلت أذكر، تلك المرأة التي ظلت سبع ليال تبحث عن جثة ابنها، هي لم تعد، قالت النسوة الجالسات أمام الأبواب يجهزن الطعام: «غرقت في النهر؛ تبحث في قاعه عن صغيرها، تخرج في الليل، تغني للرجال؛ فيذهبون لمعاشرتها فتجرجرهم إلى القاع، تطفو جثة الرجل بعد سبع ليال، لماذا فعل داسم هذا؟ لم نعرف إلا بعد سنين، قلت لجدتي «يقولون.. الحاكم رأى كابوسًا أن نارًا من البر الشرقي طولها خمسة أذرع ستأتي على ملكه» وجم وجه الجدة، ربتت على ظهري، «يا رب» قبلتني ولم تزد، أيقظتني في الليل وسارت بي إلى بيت في قرية مهجورة، قالت «ستبقين هنا سبع ليال، سنقول إنك غرقت في النهر، وسترجعين في الليل في ثياب ولد، خادم يرعاني، حتى لا تخدمي الحاكم، ستبقين بعيدا عن البر الغربي، ما دمت أنا على قيد الحياة».

***

ماتت الجدة بعد عودتي في ثوب خادم، عندما يموت السيد، يرحل الخادم، عدت إلى القرية المهجورة، عدت امرأة، لا شيء يفزعني، أخرج إلى الناس يوم السوق، أسألهم عن الحياة، الموت، الحرية، العدالة، الكل صامت، الكل خانع، الكل يرفض، تسلل الشباب إلي، شباب يرفض الذل، قالوا إنهم يزرعون، يصطادون في النهار وفي الليل يجلسون حولي، نتحدث عن الحرية، أجيب «ألا يملك أمورك غيرك.. أن تملك قوت يومك..ألا يشاركك آخر في زوجتك..أن..».

أستيقظ من غفوتي، أدور في الكهف أتأمل المقعد الحجري، السلاسل المعلقة في الجدران، هنا كان سجين وهرب أو ساعده أحد على الخروج؟ من هذا السجين؟ ومن ساعده على الخروج؟ أستخرج رزقي من تلك البحيرة الصغيرة، بحيرة، كلما ابتعدتُ عنها تقلصت لتصبح في مساحة موضع قدمين، إذا اقتربت منها تتسع وتلملمني في أحضانها، تمنحني رزق يومي، بين أنفاس الصبح، أرى نفسي هناك في البر الشرقي، أعتلي صخرةً بأعوامي العشرين، وثوبي المغزول من الكتان، نحيفة العود كنت، مشرقة الوجه كنت، طويلة الشعر كنت، رخيمة الصوت كنت، كلماتي حصوات على لساني.

– لن نقبل المهانة أو الذل، لن نرسل بناتنا لذلك الرجل، سنزرع ما نريد، عندنا البحر والنهر، وأرض خصيب، الغابة النائمة خلف الجبل ينعم وحوشها في سلام، أتدرون لماذا؟ ليس هناك طاغية يأمرها بحمل خيراتها من حبوب وفاكهة، وحيوانات تذبح على المذبح ليقدمها قربانا إلى الله، الله ليس في المعبد، الله هنا في قلب كل من يؤمن به، الله ليس حكرًا لأحد أو لطائفة بعينها، الله للجميع.. الله للجميع.

– الحاكم جاء إلينا بجيش من فتيات المعبد.

– لا نملك إلا القليل من السلاح.

أستحثهم على الصمود.

– بل نملك قوة الإيمان.. حتى الصوت قوة.

- للصوت قوة!

- قوة الصوت تحطم الأشياء..الرعد قوة..لن تنتهي الحياة إلا بقوة الصوت فما بالكم بقوة الإيمان؟

- لنذهب إليه.

نهرول إلى الموت، لا شيء خلفي سوى الخوف، الخوف قاعد في جوف الظلام، يقترب بفم كريه الرائحة، ممتلئ بأسنان حادة في لون الليل، أجري وأجري، أنفجر في الصراخ، لا شيء إلا الصدى، يواصل الزحف نحوي، أقع على الأرض متهدجة الصدر، مرتعدة البدن، مبتلة بعرق الخوف و الدموع، سيفي يقتل، صراخ الموت حجارة تتساقط من السماء، ساعة من نهار أمسيت بعدها أسيرة، قبل انصرام اليوم جئت لهذا الكهف.

***

قبس من النور عند باب الكهف، رجل طاعن في السن يتكئ على عصاه، يتجه صوبي على مهل، يجلس على أقرب صخرة، يتحدث الشيخ بصوت عذب:

- لا تخافي..لا تخافي ومعك سيفك.

- أين هو؟

- اصنعيه، كلٌ منا يصنعُ سيفه.. اذهبي إلى القلعة، ابحثي عن صحف النجاة.. صحف النجاة.

- أي صحف؟

- قبل الطوفان الأعظم، كان لكل أمة كتاب تدافع عنه وتقاتل من أجله وكثرت الحروب في الأرض، وانقسمت كل أمة إلى أمم تتقاتل من أجل نصرة نفسها، لم يفكروا في الرحمة أو السلام بل في القتل والدمار، فغاب العدل باسم الدين، تشتت أمم تحت رايات تدعي أنها رايات الحق، فضجر بعضها من بعض، جاء قوم يدعون دعوةً واحدةً أن الإنسان هو صحف النجاة إذا فعل الخير وأقام العدل ونشر السلام وأن الإنسان صحف الهلاك إذا فعل الإثم ونشر الجور والقتل.

أقاطعه:

- أتعني أنه لا يوجد..

يشير بيده لأسكت:

- بل توجد صحف النجاة، بعد الطوفان كتبتُ آيات من صحف النجاة، ولم أُطلع عليها أحدًا خشية أن يتهموني بتحريف الكتب السماوية.

- أتعني أنك حفظتَ الكتب الثلاثة؟

- نعم حفظتها ثم نسختها، لم تسعفني الذاكرة.. ثم أحرقتها، لم يعرف أحد إلا بأمر واحد، أن أرض نوح بها صحف النجاة.

- والولي؟

– الولي جاء بالحق والعدل وليصحح الصحف،ثم اختفى الولي مثلما جاء، ولكن أريجه يملأ الجزيرة من السَحر إلى الفجر ومات من بعده عبيد، لتعود الأرض إلى سيرتها الأولى.

– مازال أمر الصحف مبهمًا.

– حين تجدينها هناك.. لن تقرأيها ولن يقرأها أحد بعدك.. من كثرة الموبقات السبع ستمحى الصحف.. عندئذ ستعبرين الأفق إلى المنتهى.

– جئت لتحمل لي البشرى، أم نهايتي.. أين كنت وأنا أقاتل؟

– قال حكيم منذ عهد بعيد إذا نزل مؤمن وكافر إلى النهر، سينجو من يجيد السباحة.

– من أنت؟

– جدك نوح.. جدك نوح.

يخطو إلى الخارج.

ما كان، أحلم أم يقظة؟ ماذا جرى منذ لحظات؟ أستعيد حديثي معه.. أي صحف؟ القلعة هنا يفصلني عنها سرداب، أسير خلف جدي نوح، الباب مفتوح، أصنعَ خوفي بابًا لسجني؟ أيصنع كل منا من خوفه بابًا لسجن نفسه؟ أسير إلى صحن القلعة، الظلام يحيط بالكون، لم تشرق الشمس إلى الآن! من أول الليل أتساءل «لا أدري ماذا يجري؟ ولا أدري أين الصحف؟ طيور

الموت واقفة خلف باب القلعة، أي ابتلاء أنا فيه؟ أأصحاب حق أم لا؟»
أفتش القلعة، يجرجرني النوم برقة إلى كوة باردة لأنعس، أفيق من غفوتي، أصعد إلى سطح القلعة، الشمس أشرقت من الغرب.. الشمس أشرقت من الغرب! أسرع إلى السور، الشمس عروس ترفل في ثوب فضفاض، عروس يلفها حزن ما، باهتة البهجة، أود أن أسألها، أين كنتِ؟ لماذا تأخرتِ كل هذه الأيام، أيام لم يظهر القمر و لم تظهر نجومه، ولماذا جئتِ من الغرب؟ جئتِ من خلف جبل الضواري، كنتِ تنامين خلفه بعد يوم طويل، تغمر الشمسُ المكان أتحدث لنفسي.

– يا ألله في أي زمانٍ نحن!

أسرع إلى حجرة الولي، أدفع الباب، حجرة فسيحة، بها محراب في أعلاه نافذة صغيرة، تطل منها السماء على المحراب، أشم فيها أريجًا يثلج الصدر، أفتش عن الصحف في كل صوب، خلف كل أثاث، أعلى المحراب أرى حمامة بيضاء، تهجر عشها، ترفرف في الفضاء، تدور في حلقات ثم تحط في ركن بعيد في الحجرة، أصنع من الأثاث سلمًا، أصعد في حذر، أصابعي تتحسس المكان، غصن زيتون أخضر، أضعه بين أسناني، تغيب أصابعي في فتحة، تمسك أناملي بأوراق، أصيح فرحة:

– الصحف.. الصحف.. الصحف.

ينهار السلم، أسقط على رأسي، تغرورق عيناي بالدموع، وأصابعي تتحسس الخط.

- إنها الصحف.

ترفرف الحمامة لأعلى، في أعلى الأفق نوح يتكئ على عصاه، يشير لي قائلاً:

- ستعبرين الأفق إلى المنتهى.. إلى المنتهى.

أريج يتسرب إلى صدري، يد تخفف ألمي، أنامل دقيقة تمسح دموعي، يردد لساني على مهل:

- إلى المنتهى..إلى المنتهى.

نوح

(١)

ستعبرين الأفق إلى المنتهى.

لتعلمي أن بموت السابع ترفع كلمات الحق

بموته لا يبقى إلا الشر.

ستعبرين الأفق إلى المنتهى.

لتعلمي أن الفصل الأخير سبع آيات،

سبع آيات تتساقط على الأرض مثل أيام الأسبوع.

ستعبرين الأفق إلى المنتهى.

يدك في يدي، نذوب معا،

ننتظر معا،

فلا مقام لنا على أرض دنسها الظلم، ومات فيها العدل.

خطاياي تلفني؛ كما يلفني ثوب الموت،

أطمع في المغفرة،

المغفرة ثوب من أثواب الرحمة،

اسمعيني، فهذه كلماتي الأخيرة،

بل شذراتي الأخيرة،

ما بقى من حياتي في رأسي.

شذرة أولى.

فوق أعلى ناطحة سحاب بالعاصمة، بعيداً عن كل أبنائي و أحفادي، بعيداً عن كل طلابي بالجامعة وأصدقائي، أحتفل بيوم ميلادي، في ركن قصي قاعد أنا والليل، نضد أمامي، شمعة واحدة تتوسط مثلث صغير من تورتة بالشيكولاتة، احتفالي بعامي الأول بعد السبعين، وبنجاح عملية تجديد الخلايا الجذعية، التي شاخت، أقطع قطعة صغيرة، أستلذ مذاقها الطيب، يتقدم صوبي بخطوات منتظمة وسريعة، شخص فارع الطول، عريض الكتفين، يرتدي حلة سوداء، شديد سواد الشعر، عيناه رماديتان، وجهه متعب كأنه قادم من سفر بعيد، مسافر عبر الزمن، يرسم أبتسامة على شفتيه، يخرج من جيب الجاكت علبة صغيرة، يفتحها، قطعة ذهبية غير مستوية، تتلألأ في هذا الظلام، يقدمها لي قائلاً:

- كل سنة وأنت طيب يا سيدي.

أبتسم ممتناً.

- أتذكر عيد ميلادي؟

- لم أنسه يوماً.

- لم؟

- دعنا نحتفل بعيد ميلادك، مبروك تجديد خلاياك، أصبحتَ كمن في العشرين، رغم بعض الشيب، وقليل من التجاعيد.

أشير له بالجلوس.

- العلم يصنع المعجزات يا...

- إذا تكرمت قل لي يا ولدي ، أسوء ما صنعه العلم القارة الجديدة.

يدفع العلبة صوبي، لم أر ذهبا بهذا البريق من قبل، يغني أغنية عيد الميلاد، لصوته صدى غريب، صوته آتٍ من بئر سحيق، ومع هذا يشجيني، يأبى مشاركتي الطعام، يردف:

- أبحث عنك منذ سنين.

- وجدتني، وماذا بعد؟

- لاشيء ، حقي .

أزدرد لعابي.

- وما حقك؟

- نصف ما تملك، فأنا ابنك.

- أعرف كل أبنائي.

- أنا داسم بن لاقيس.

أتوقف عن مضغ الطعام، مازال ذنبي يطاردني بعد كل هذه السنين.

- خذ نصيبك كأخوتك.

- أنا خير منهم.

أضغط على حروف كلماتي.

- لن تأخذ سوى نصيبك.

- سأقتلهم، لن يرثك غيري.

- يعرفون بوجودك، حذرتهم منك، أنت أضعفهم.

- بل هم الأضعف، دائما يتقاتلون باسم الدين ، باسم الوطن ، باسم الحرية، الحرية التي يشنقونها على أبواب مدنهم، يتشدقون بالحب وقلوبهم ممتلئة بالكراهية، يتشدقون بالمساواة والعنصرية جذورها في قلوبهم ، أنا أكثرهم قوة.

- كيف؟

– أحب نفسي ولاشيء آخر، عندما ينتهون من معاركهم مع بعضهم بعض، سأقاتل المنتصر و أرث كل ماتترك وليس نصفه.

أغمض عيني، أذرف الدمع، أتمالك ذاتي، أزعق:

– اغرب عن وجهي..

أكررها رافضا وجوده ، أكررها سبعاً لأرجم بها الماضي، أكررها خوفا على أبنائي، يسرع النُدل صوبي، على وقع أقدامهم اللاهثة أستطرد:

– أخرجوه.

– من؟

– القاعد أمامي.

– عفواً سيدي؛ لاأحد!

أفتح عيني، أين ذهب ؟ لا شيء سوى قطعة الذهب وبطاقة مدون عليها «قطعة من جسد أمي» لعنة لاقيس تطاردني وذهبها الملعون.

شذرة ثانية.

توأمي، صوته بأنات الموت جرسٌ في دماغي.

– لستُ غاضباً منك.. إنك أخي.. لا تنسني.. لا تنسني.

ترسمه الحروف مسجى في قلب أسود، اسمه الصحراء، الصحراء ترجع لصمتها، يهجع وحشها، ينعم بهواء بارد، خطواتي تتبع بعضها بعضاً،

يلفها خوفي من «لاقيس»، وحزني على أخي الذي تركته لوحوش الصحراء تلتهمه، في حين أنني أحمل صحف النجاة لتدفع عني السوء، صحف النجاة التي نسخها بيده، الآن أبكيه، لم أطعه يوماً، كنا كما الموت والحياة، النهار والليل ، الأسود والأبيض، الظلمة والنور. الآن يموت وهو في الأربعين، وأبقى بعده نادماً، كياني يصغر ويصغر، كأني طفل ابن سبع سنين، يبكي بكل ما أوتي من قوة،أسير وأسير، لا شيء حولي سوى السواد، سواد لا ينتهي، لا أدري كم من المسافات قطعت، الخوف ابتلع في جوفه كل صور التعب، أتوقف لبضع ثوانٍ، لساني مازال يتلو آيات من صحف النجاة.

صوت رقيق نوراني يخترق الظلام القابع فوق صدري، أرهف السمع، نقرات دفوف متباعدة، يصاحبها غناء جماعي عذب، إنهم مريدوا شيخ الصحراء، في ذهابي إليها، سرتُ بعيداً عنهم، صوت أخي «اصطحب معك أحد مريدي شيخ الصحراء» الفضاء ممتد، أرفع رأسي للسماء، لأول مرة أراها بهذا الصفاء، جذوة نار، أسرع صوبها، أبغض كل ذرة رمل تعوقني، النار تتراقص، كلما أدنو تزداد ملامحها، رجال في ثياب بيضاء يتمايلون يمينًا ويسارًا، الآن الصوت والنار أأنس بهما، يسرع بعضهم صوبي، يحملونني، يتحدث أحدهم:

– جئت على قدر يا نوح.

أيعرفون اسمي؟! عشرات من الدوائر البيضاء تدور حولي، يتراقصون، للدفوف لحن يغسل جدران قلبي؛ فتأنس روحي، يزداد بكائي، ينقلونني

من أيادِ لأيادِ أخرى، كأنني أرقى وأرقى حتى باب خيمة، يتخلل الضوء الأبيض لون الزبرجد، جفناي ثقيلان.

هو قاعد على كرسيه، خيمته بلا سقف، كل المريدين يتراجعون، حبات المسبحة تتساقط بين أصبعيه، استشعر نظرات اللوم والعتاب لموت أخي، أأتى إليهم؟ حتما جاء وأرشدوه، لماذا لم يأتوا معه؟ ربما حذروه، أصر على إنقاذي، قدم روحه قربانا لحياتي، لا أعرف.

أفتح فمي، صوتي غائب في كهف الفزع، عيناي مخضبتان بالدموع، ساقاي مرتعشتان، كفي اليمنى مازالت قابضة على الصحف، أفقد الوعي.

أفيق، مازال الشيخ في موضعه، يسيرصوبي حافي القدمين، يسير صوبي فوق سجادوثير، يتوقف أمامي ، ينظر في عيني.

- مات أخاك.

- نادم أنا يا سيدي.

- الندم أول طريق التوبة.

يده تمسح على رأسي، أنظر لوجهه، أبيض مشرب بحمرة، مزين بلحية وشارب كندف الثلج المتساقط على قلبي المتوهج، يعقد يديه أمام فمه.

- أخطأت يا نوح.

ليتني أنادي على أخي ليزملني أو يدثرني، لأنجو من صقيع الخوف.

- ماذا عساي أن أفعل؟

- باب التوبة لا يغلقه الرحمن .. ادخلوه.

يحملونني إلى الداخل، يلحظ دموعي، يمسحها بأنامله الدقيقة مستطرداً:

- ستكفر عن خطاياك.

أهز رأسي بالإيجاب، أستلقي على حاشية فترة أخرى، رافضاً الطعام، إلا قليلاً من التمروالماء، بين الحين والآخر، يأتيني الشيخ، يمسح على رأسي، يتمتم بم لا أعرف، يذوب حزني شيئا فشيئا.

أتماثلُ للشفاء، الشيخ قاعد على كرسي هزاز بالقرب من حاشيتي، مغمض العينين هو، حبات المسبحة تتساقط ببطء بين أصابعه، يواصل حديثه قارئا ما يدور في رأسي.

- استعن بالصبر فالأمر شاق.. ذهبتَ لأرض السحر، تبتغي مزيداً من العلم.

- أود أن أبلغ من العلم ما لم يبلغه أحد.

يفتح عينيه

- ما تعلم وما ستعلم أقل من القليل، فلا تحمل نفسك ما لا تطيق (يغمض عينيه مردفا) ذهب المريدون مسترشدون بأثر خطواتك على الرمال إلى هناك، فلم يجدوا إلا عظامًا ودماء وبقايا جسد.. حفروا قبرًا وأقاموا

الصلاة عليه، ابنك حمله ذئب إلى الآخرين.(يزفر بأسى) أصبح لك منها ابن، سيطارد إخوته شئت أم أبيت، سيطيعه بعضهم،عندما يكتمل من نسلك سبعة، ستنقلب الآية.

أواصل النوم من جديد.

لا أعرف متى استيقظتُ، أو متى خرجت من الصحراء إلى المدينة ، أو متى عدت لسكني ومعملي في تلك البلاد الغريبة، التي تجمع العلماء من كل البلاد، ما أعرفه أنني أسير في شوارع العاصمة متجها صوب عملي تائها بين الآف البشر.

شذرة ثالثة.

في الليل يلملم رجالنا أصحاب الياقات البيضاء المشردين وأطفال الشوارع، نحقنهم بمخدر نرسلهم بطائرتنا، تلقي بهم في أرض القارة الجديدة، نخضع الفقراء لاختبارات الذكاء، ومن يفشل نرسله إلى هناك كلما ازداد السكان تزداد الاختبارات صعوبة، وتدخلت الرشوة و الاستثناءات، تعددت الاختبارات النفسية والعقلية، عشرون سنة من العمل.

في صباح اليوم أطلق علماء القارة الجديدة موجات إعصاريه مع إنذار قصير .

«ستفنى الحياة على الأرض لعام واحد حتى يُقضى على التمييز العنصري».

أنظر إلى شاشة المقعد، أضغط على زر، تتحرك الكبسولة الجيلاتينية، يقف نصفها خلفي مباشرة، أغرق في الجيلاتين الحيواني تدريجيًا، دودة صناعية

تقبض على بطني لتحل محل الحبل السري، يغمرني السائل من أسفل إلى أعلى ببطء، المادة المخدرة تتسرب من مسام الجلد إلى جسدي.. صوتٌ في رأسي «سيدي نسبة نجاح التجارب لن تزيد عن نصف بالمائة» جبال من الماء قادمة من بعيد، تنهار ناطحات السحاب، يتلوى الماء في الشوارع، يقذف البشر، يبتلع الضحكات، طوفان الحداثة يغرق كل شيء، لا شيء باقٍ إلا الماء، تسبح على سطحه كبسولات الحياة، ترتطم الكبسولات ببعضها البعض، أغمض عيني، هواء شديد البرودة.. كل شيء حولي مظلم، كبسولتي يؤرجحها الماء، الطوفان يغمر الأرض، يغالبني نعاس.. نعاس ثقيل.. أفقد الإحساس بكل شيء..كل شيء».

شذرة رابعة.

أعجز عن وصف ذلك الإحساس في تلك اللحظة، أتأرجح بين الموت والحياة، أساكن في قبر أم أنني خارج من سبات عميق إلى الحياة؟! ألم.. نعم أشعر بألم.. إذًا أنا حي..الألم هو أول علامات الحياة، جسدي مثقل بالألم، كل مفاصلي ثقيلة الحركة، لا أستطيع السيطرة عليها، خيط دقيق من النور يتسرب إلى داخلي، يبدأ عقلي في إدراك ما حولي، إنني أولد من جديد، أفتح عيني، هأنذا على رمال شاطئ، أمواج البحر تقبل قدمي، أخرج من كبسولتي المتحطمة بجسد تجاوز الثمانين.. أترنح.. أقع.. أضحك.. لصدى ضحكاتي جمالٌ، صوتي كأني لم أسمعه من قبل.. أضحك وأضحك، أفتح ذراعي للهواء، ألملم هواء بقدر استطاعتي ليدخل صدري.. أبصر السماء

صافية، لصفائها زرقة خلابة، كدتُ أسألها أن تروي لي ما جرى في الطوفان، ملايين الكبسولات، هل تفجرت في موعدها أم تأخرت ومات ما بداخلها من حيوان ونبات أم تفتحت مبكراً عن موعدها؟ حتما ستخبرني السماء أن كل ما هو من صنع البشر اختفى وتلاشى ولم يبق إلا كل ما هو طبيعي.. هذا ما أعرفه. حتماً ستخبرني بأن كل مَنْ قابلت من البشر ماتوا، كل بصمة قدم على الطرقات تلاشت، كل الأضواء الزاهية في الليل انطفأت، كل أبواق السيارات، أزيز الطائرات، كل شيء من صنع البشر تلاشى معهم، حتى تلك الأماكن التي تشبعت برائحة عرقي دُمرت.. لم يبق إلا الصمت، صمتٌ يتخلله هدير الموج، وهواء يداعب أجراسه الخرساء، بالله عليك أخبريني بما جرى.. ستلوذين بالسكوت لأعرف بنفسي ماذا بقي؟ ربما تهمسين في أذني بأن ما مضى قد مضى، لم يبق إلا القليل من البشر، ألمس جسدي، عليه ماده لزجة، أستلقي على الأرض، أقبض على حفنة رمال، أسربها ببطء من يدي، عشرات الكبسولات يعبث بها الموج كيفما يشاء، ابتسامة تطفو على وجهي.

- أنا حي.. أنا حي.. أنا حي.

أرددها بصورةٍ هستيريةٍ، أنتصب واقفًا، أترنح في سيري، أسبح في الماء من كبسولة إلى أخرى، الموت يعشش في الوجوه.. هياكل عظمية.. بذور نباتات.. جرو صغير، أمسح على رأسه، أحمله ببطء، أتركه برفق يسبح حولي، نباحه يتخلل الصمت.. أتلمس جثثًا باردة، غلب الموت من هم أصغر سنًا، أتساءل لماذا أنا؟ أهناك ذنب لم أُكفرْ عنه بعد؟! يجري الجرو في كل صوب

ثم يرجع إليّ وأنا أبني بيتاً، ظل ينسكب عليّ، ألتفت لأرى فتاة بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، عارية النهدين، تحيط خصرها بجلد ماعز.

– ماذا تفعل يا جد؟

لم تمهلني وقتًا للإجابة، أخجل من عُريي، تقعد بجواري، تسألني:

– لماذا حدث الطوفان؟

ألوذ بالصمت.

– اتبعني إلى الجبل..هناك خيمتي.

عند الخيمة، يطارد الجرو بعضًا من الخراف والماعز، تصبُ «سمراء» قدراً من اللبن في قدحين، تدخل الخيمة، تخرج برقعة جلد، تلقي بها إليّ.

– دارِ سوأتك.

أربط الرقعة حول خصري، يتمسح الجرو بأقدامها، تحلب شاة، تقدم قدح اللبن لي، قائلةً:

– أنت تتكيف مع الوضع الجديد.

– أخشى على نفسي من الجنون.

– ستصاب بالإسهال، لأن معدتك لم تهضم طعاماً منذ سنة.

يزورنا الليلُ بخطوات هادئة، ينعسُ الكون، تقرقر بطني، أسرع بعيدًا،

أتوارى خلف صخرة، أقضي حاجتي، تساءلتُ كيف كنت أقضي حاجتي في الكبسولة؟ أضحك لأنني سألتُ أحد أصدقائي سؤالي هذا فأجاب وهو يدخن سيجارته:

- الكبسولة سر من أسرار الحياة؛ تضخ الأكسجين والهيدروجين، وتمتص ثاني أكسيد الكربون وتطرده للخارج، وتمتص قليلًا من الماء، لا تقلق ستطرد الكبسولة الفضلات التي لن تتجاوز نسبة ضئيلة فأنت يا صديقي في نوم عميييييييييق.

أرجع إلى الخيمة، النار تسكب ضياءها على جسد سمراء، متسائلاً أمازال في صدري شوق للنساء؟ لا شيء يسترها سوى رقعة من الجلد حول خصرها، النهدان طليقان، أتمدد في جوارها، يدها تحيط بعنقي، أقبلها، تدنو وتدنو، أصابعي تلاعب النهدين، أفلح في غزو هلالها، آتيها مرة أخرى، نخرج إلى الشاطئ، عسى أن نرى أحداً، تأتي امرأة ثانية. في جوف الليل زئير أسد، أشعلتُ النار، أصنع رمحاً، زوجتي الأخرى تحلب شاة، تصلبتْ ملامحها من الخوف، ألتفتُ حيث تنظر، الأسد يقترب في حذر، أأرجح يدي في الهواء، الرمح يصيب إحدى قدميه الأماميتين، من خلفي ينطلق سهم فيسقطه صريعاً، أستدير، سمراء ببطنها المنتفخ واقفة عند باب الخيمة، يسقط القوس من يدها، تصرخ من ألم المخاض.

يأتي رجال ونساء، أسكن بالقرب من الجبل، أعلمهم صيد البر والبحر، وصناعة القوارب والشباك، علمتهم كيف يميزون النحاس من الذهب،

كيف يصنعون السيوف والرماح، كيف يخطون بالقلم ، يقدمون لي نصيبا مما تناله أيديهم من صيد البر والبحر، ندفن أول جسد في مدافننا النائمة أسفل الجبل، يشيدون البيوت من الطوب اللبن ،قسمنا الجزيرة بيننا النصف الغربي القريب من الجبل لي ولأحفادي من بعدي، نتولى حراسة الناس من وحوش الجبل، التي أطلقنا عليها الضواري، ونحكم بين الناس بالعدل، و لهم النصف الآخر، الليلة أزف إلى زوجتي السابعة، عيالي يلعبون حولي، **أتأملهم، كثيروا العدد، سيتحدون معا، في وجه ابن لاقيس، لن يملكهم إلا إذا اختلفت قلوبهم**.. سمراء كلما ألقمت صغيراً ثديها، أتوق شوقا لها، حتى لوكنتُ بين فخذي امرأة أخرى، أي عبث أصابني، أي حزن يسكنني كلما تذكرت لاقيس وولدي داسم، ترى أمات في الطوفان كما مات كل نسلي، لا زلتُ أذكر قول الشيخ «سيطارد أخوته شئتَ أم أبيت» تزوجت سبع نساء ليملأ نسلي الأرض أحذرهم من الموبقات السبع ومن أخيهم.

شذرة خامسة.

قالت زوجتي الثالثة:

- أخشى ألا تصدقني يا مولاي.

- زوجتك الرابعة..يأتيها رجل.

الرجال هناك عند الشاطئ، لا يقتربون من أرضي إجلالاً وتقديراً، أصطحب كل عام عروسًا إلى هنا، ولهم الباقي من النساء الناجيات، معي

من الزوجات سبع نساء، أكثرهن حبالى، سيملأن الأرض من نسلي، لتصبح أرض نوح.. أرض نوح.

تخرسني الدهشة لزمن أجهل مداه، ينكسر صوتي.

- لا تخبري أحدًا حتى أتدبر أمري.

أسترجع هذا الحديث وأنا واقف خلف ستائر النافذة، صرير باب.. آهات.. ضحكات.. سيفي في قبضتي، أراهما متلاحمين، يستشعر وجودي، يلتفت لرؤيتي، فزعًا قال:

- أبي!

تبتعد عنه إلى ركن تستر جسدها، قطعة ذهب على الفراش، بضربة سيف، أبتر نصف إحليله، قائلاً:

- حتى لا تعاشر النساء مرة أخرى.

ينفجر صراخه ودمه، يتلوى من الألم يتوهج جسده، تنفر عروقه، تهرع صوب الباب، أقتلها، عواؤه يهز الجدران، تدخل باقي الزوجات، تتقدم سمراء:

- لِمَ؟

- إنها خائنة.

تلفظ المرأة أنفاسها الأخيرة، داسم يواصل أنينه، تضع سمراء الخنجر في المدفأة، يشتد احمراره، أكوي عضوه المبتور، يصرخ بكل ما أوتي من قوة،

يفقد وعيه، أقيده، أجرجره حتى باب البيت، الباب يستظل بشجر التفاح، الشجر لا يدري ما يجري حوله، أضع داسم في قفص حديدي، تحمل النساء القفص؛ لنضعه على ظهر ناقة، أحدثهن:

- ادفنوها، لا أريد أثرا لما جرى حتى في صدوركن.

أمتطي حصاني، أجر خلفي ناقة، الناقة مقيد عليها داسم، داسم في غيبوبة الألم، الألم ينبض أنيناً خافتاً، أسير صوب كهف في الجبل، الطريق طويل، طويل جداً، أبلل الثرى بدموعي.. زوجتي وابني، أي بلاء ابتليتُ به؟! ابني الذي التقيت به مرة قبل الطوفان ومرة بعده، أدخل الكهف، لا يدري كم من الوقت مضى عليه وهو موثوق اليدين، معلق في قفص من الحديد يتأرجح فوق بركة الماء. الماء يقطر من قمة الجبل، يقطر فوق القفص، ثم يسقط في البركة.

يفيق من غيبوبته، من بين أنينه:

- أبي.

- ألم تعاهدني بأن تظل ابنًا بارًا بوالده؟

- هذه المرة الأولى يا أبتِ.

- كاذب.

- المرأة رأس الخطيئة.

- أنتما معًا.

- لا تتركني يا أبتِ. لا تتركني.

أشد الحبل المربوط بقمة القفص، يرتفع القفص لأعلى نقطة في الكهف، يقطر الماء على داسم.

- ابقَ هنا حتى تذوب جدائل الحبل فتنجو، أو تموت في مكانك.

- لا تتركني يا أبتِ..لا تتركني.

- لكل خطيئة عقاب.

- لا تتركني.. لا تتركني.

أهبط إلى بيتي حزينًا، يركبني الهم والحزن، إلى متى سيظل ذنبي يطاردني، إلى متى سيظل داسم حاقداً على إخوته، الآن يريد إذلالي، سيموت بيدي، وتحت عيني، فلا أمل فيه، لا أشعر أين أنا؟ أغصان تلامس جسدي فلا أبالي بها، نعلي يهشم الأوراق الجافة وأنا أسفل شجرة التفاح، تصرخ سمراء:

- انتبه.

جذعٌ قريب مني، لم يكن جذعًا بل حية، أصرخ من عضتها، و..»

نذوب يا حفيدتي في المنتهى.. في المنتهى.

داسم

(١)

يرفع الناس أعناقهم صوب الشرق، مازال الليل قائمًا، رمادي اللون، بدأ الكلام همسًا، حتى صار حديثًا صاخبًا، علا الصراخ «الشمسُ لم تشرق.. الشمسُ، لم تشرق» تطير الجملة بين الأفواه، تبحث عن صدر تسكنه، فلا أمل، تقفز من بيت إلى بيت، يفزع الناسُ منها فيتركون الديار، تسير الجملة معهم في الدروب الملتوية غير عابئة بالغبار، تقف معهم أمام المرسى، «إلى المعبد.. إلى المعبد» جملة ترافق الجملة الأولى، كثيرون جاءوا، أم تحمل صغيرها، حبلى تتكئ على زوجها، أب ينادي عياله..العجائز والشيوخ في نهاية الجمع، بين حين وآخر تلتفت الرؤوس إلى الشرق، يزداد الفزع، نفضت البيوت كل من فيها، لم يبق إلا الحيوانات تجتر طعامها في هدوء، الكلاب تبسط أقدامها غير مبالية بما يجري حولها، الطيور تسكن في أعشاشها المطلة على النهر، تتأمل المراكب وهي تجري إلى البر الغربي ملفوفة بالقلق، وظلام يحمل بين جنباته بردًا قارسًا، الأقدام تتجه صوب المعبد، المشاعل

تسكن الجدران والأعمدة السامقة، دقات الطبول تعلن قدوم فتيات المعبد، يتراقصن على نقرات الدفوف، أشعل النار، تنساب الموسيقى، عذبة رقراقة، يرهف القادمون السمع، تناديهم بصوتها، تهدهدهم، تمسح الخوف وترحب بهم، ترقص فتاة، تغني أخرى، ترقص ثانية وثالثة، يشكلن دائرة حول النار فتكسوهن بنورها، تحط النظرات على الأجساد اليانعة، أتسلل إلى بيت وزير، سؤال يطن في رأسي «لماذا لم تشرق الشمس إلى الآن؟» خلفي مئات من البشر، أعرف تماماً أن القلق يسكن صدورهم، أصعد إلى حجرة الحاكم:

– حان الوقت أيها الرجل لتسير معي إلى مصيرك.

(٢)

ماتوا جميعا، مات من بقي من آل نوح، الأحفاد الستة، لا أثر لهم على الجزيرة، وزير، عاصي، إسراء، خليل، آية، قبلهم كان صالح، السبعة الباقون من نسلك يا نوح.. يا أبي، لم يبق غيري، أنا ابنك، ابنك السابع، ابنك الذي طردته من جنتك، حرمته أن يملك ثروتك، جعلتني طريدا بين عالم الإنس والجن، أنا المسجون بين العالمين، أتعرف لماذا؟ لأنك لم تملك الشجاعة لقتلي، كنت تظن أن موتي سيقتلني، لا يا سيدي، كنت سأنتقل لعالم الجن، أبرأ من سحرك وتعويذة أمي، لكنك ضعفتَ، جبنتَ، هربتَ لأبقى عالقاً بين الأنس والجن، آخر أبنائك يحملونه من المذبح إلى قبره، ابنك في ثورة غضبه قتل أخاه، عاصي الذي ذاقته أغلب النساء، لم تحمل امرأة واحدة منه، أمامي الآن أهل البر الشرقي، لن تصدق سرقوا كل شيء في بيت وزير، حتى القمح، سرقوا التماثيل التي سهر الليالي في نحتها، لا تتعجب يا نوح، لا تتعجب.

القلعة تطل عليّ، رغم غياب الشمس، رغم رمادية الهواء، رغم سكون الذهول، حتما ستشرق الشمس، ربما قبل أن يرقد وزير في مرقده الأخير، أصبحتُ حاكم الجزيرة، من هنا غيري؟ من هنا غيري؟

نهى.. نهى، أتكون هي السابع من آل نوح؟ السابع بموته ترفع كلمات الحق.. بموتها لا يبقى إلا الشر، ألم تقل هذا؟ آيات الفصل الأخير سبع آيات، تتساقط على الأرض مثل أيام الأسبوع.. انظر، الرعاع يلقون بابنك في قبره، يتبولون فوقه، يرجمونه بالحجارة، أشير لهم بالعودة، من شرفتي المطلة على المعبد أزعق:

– أيها الناس.. أيها الناس، أنا حاكمكم، أنا قدركم، أنا لعنة الله عليكم، فمن يعصاني فله الويل والثبور ومن أطاعني له الرضا والسرور، فلا تعصوني، لن تزف لي عروس، أيها الناس لكم ما أخذتم، عند اكتمال القمر، ستحملون قليلًا من الفاكهة أو أحد أغنامكم، تقدمونه قربانا لله وتقدمون لي منكم امرأة، ثم تعودون لحياتكم.. هيا اذهبوا. (أشير إلى الغرب) الشمس تشرق من مغربها، تشرق بعد غياب ثلاث ليالٍ.

يتصايحون فرحا لرؤيتها، إنها دورة الحياة، دورة الطبيعة، لن تتوقف، يرجعون فرادى، وثنائيات، وجماعات، فوقي الشمس بحرارتها الدافئة، أشم الهواء بصدري، صدري النابض بالحياة، تصل الشمس إلى منتصف السماء وترجع إلى الغرب، أراقبها من نفس النافذة، نافذة وزير، مازالت فتيات

المعبد في بيوتهن، تطرق إحداهن، صرير الباب، صوت خطواتها، دون أن ألتفت:

- اجمعن كل العنب، اخلعن ثيابكن، ارقصن فوق الحبات، هيا ارقصن.. ارقصن.

باب الماضي لم يوصد يا أبي.

***

دخان الذكريات يتسرب منذ سنين بعيدة.

كل ما أذكره أني طريد في حلي وترحالي، طريد وأبحث عن زادي، طريد من العالمين، ألتقطني جني تمثل في هيئة بشر:

- سأخبرك بمن أنت؟ ولماذا أنت طريد من العالمين، بشرط أن تمنحني جزءاً من قدراتك، سأعلمك كيف.

- موافق

- لا، ستبرهن على ذلك

- كيف؟

يشير لي بالأقتراب، يهمس

- أقتل شيخ الصحراء

أزحف إلى هناك، محاط بعشرات بل مئات من المريدين، ثيابهم كلها بيضاء، ثياب تضيء في عتمة الليل، في النهار تصبح في لون الزبرجد، أرقب المريدين، أختار أحدثهم عهداً، وأكثرهم ضجراً، أزحف صوبه، وهو يقضي حاجاته، يتسمر من الخوف، فما يرى سوى حية عظيمة، انتصب نصفها الأول، أحدثه

ـ سأمنحك ما تحلم به

– ك..ك.. .. كيف؟

– أدخلني إلى الشيخ

أتحول إلى حية رفيعة، لا يزيد طولها عن المتر ونصف المتر، ألتف حول خصره، يسدل جلبابه، يسير بين المريدين، يستأذن في الدخول على الشيخ، يخطو خطوتين، صوت الشيخ

– ماذا أحضرت معك؟

– بعضاً من ثمار التفاح

– كاذب

أندفع بقوة وأعود لسيرة الحية الكبيرة، أعض الشيخ في قلبه، يصرخ صرخةً عظيمة، يرتج لها كل ما حولي، يسقط صريعا، يسرع إليه أغلب المريدون، يبصرون خنجراً في يد المريد، وطعنة في قلب الشيخ، يأتي الفجر والمريد مصلوب في جوف الصحراء، يردد بين الحين والحين.

لم أقتل الشيخ ..لم أقتل الشيخ

يموت بعد بضعة أيام.

أعود إلى الجني، يخبرني

- في صحراء قاحلة.. رمال ناعمة تغوص فيها قدما نوح، يسير في قلب الصحراء معتمدًا على بوصلته، قابضًا بيده على الكتاب، يتوقف محدقًا في الظلام الحالك، يفتح الكتاب، تضاء هوامشه بضوء أحمر خافت، يقرأ التعاويذ، يشتد سواد الصحراء غلظة، يقشعر بدنه، شخص ما يقترب، يقترب ولا يراه، يحس بأنفاس ساخنة تلف كيانه، فحيح وصراخ يزعجانه، ينزعرقًا، أمسى لسانه ثقيلًا، لا يقوى على تحريك أطرافه، على مرمى البصر تولد حجرة من قلب السواد، تتوهج بلون أحمر قانٍ، في أركانها شعلات النار الأربع، يتوسطها كرسي ذهبي اللون على حوافه نقوش بارزة، أمامه على بعد أمتار ألسنة لهب تخرج من جوف الأرض، يواصل القراءة، يتداخل صهيل جياد، مع صليل سيوف، استغاثات قتلى، أنين جرحى، ضحكات هستيرية ثم صمت مقبض، تهمس لاقيس خلف أذنه:

- تعال..تعال..امنحني طفلًا لأمنحك حياة أبدية.

يلتفت ليراها، يضوي جسدها أسفل غلالة شفافة، تفور الشهوة بداخله، يتلمس الكتفين، نظراتها تأسره، أصابعه تسبح على كيانها، يتلمس النهد بشوق، تجذبه إليها برفق، يستشعر سخونة جسدها، تتلاقى الشفاه، تستلقي برخاوة على الرمال الساخنة من وهج شمس نهار ولى، تهمس في أذنه:

– سألد الطفل في ثلث الليل الأخير.

يمخر عباب أنوثتها، تردف:

– قبل الفجر.. اقتله.. هناك.. (تحيط كتفيه بساعديها) بين الكرسي والنار اقتله.

يرتجف رجفة النشوة بين يديها، يستلقي على الرمال ليتلقط أنفاسه، يتدثران بظلمة الليل وفراغ الصحراء، تتكئ على جانبها الأيسر، تمد يدها إليه، وأنا أشم صوت رأسها.

«بعدما تفعل ستصبح عبدًا لي ويصبح ابني سيدًا على كل نسلك».

صوتها يحدثه:

– تعال..أنا ملك يمينك حتى ألد.

هذه مكيدتها أن يسيطر نسلها على كل أبناء نوح وأحفاده، يلمسها بأنامل تتوهج عشقًا، صوت جهوري يخترق السكون، يهتك لحظات التلاقي:

– دعها يا نوح.

تنتفضْ، تتوارى خلف نوح، نوح الذي أصابه الذهول، تتحدث لأخيه القادم من بعيد مرتدياً عباءة احد مريدين شيخ الصحراء:

– جاء إليّ.. دعه واذهب.

– إنه توأمي.

تحيط نوح بساعديها ليستشعر أنوثتها:

- إنه عبدي.

تمسح على رأس نوح، بصوت أملس تواصل:

- لا تصغ له يا نوح.. سأمنحك حياةً أبديةً بعد أن تقتل الرضيع.. لن تموت.. لن تموت.

يقاطعها أخوه:

- الموتُ لا مفر منه.

يشير الأخ بيديه صوب الحجرة، يتمتم بكلمات أعرفها.. الحروف توخز جسدها، تتلوى من الألم، تثير لاقيس عاصفة رملية لتحجب الرؤية، يغمض عينيه مواصلًا القراءة، يزعق في نوح:

- تراجع يا نوح.. تراجع.

تنتفخ بطنها تدريجيًا، تصرخ في نوح:

- طفلك في أحشائي يتحرك.

تتكور البطن بسرعة وتكبر، تصرخ:

- سألد يا نوح.. منحتك جسدي وقلبي.

تعاني ألم المخاض، مازال توأمه يقاومها قائلًا لأخيه:

- لا تقتل الطفل.. ستتحول عبدًا أنت ونسلك له ولأمه.. لا تقتله.

تتلوى من الغيظ، يواصل القراءة، تخرج يا داسم للوجود من بين ساقين منفرجتين صارخًا صرخة الحياة، تقطع الحبل السري بأسنانها خوفا عليك من الموت، الدماء تلوث فمها ويديها، تلفك بثوبها، يبتعد الأخ عن الدماء، يصرخ في وجهها:

- لن تناليه.

صوتها حاد من شدة كظم الغيظ:

- إنه لي.. ابنك يا نوح.. احمله للمذبح..هناك..اذهب به لتنال حياة أبدية.

ترتجف ساقاه، حائرٌ بينها وبين أخيه:

- اتلُ معي الآيات.

تزعق:

- سيظل ابنك عالقًا بين الإنس والجن.. اقتله...

الكلمات المقدسة تدور في رأسه، يصرخ نوح بكل قوته ضاغطًا بيديه على أذنيه، وهي تتلوى من الكلمات، تتوسل إلى أخيه:

- لا تقرأ..لا تقرأ..لا تقرأ.

يقع على الأرض، تتحول إلى عجوز شمطاء، وأنت تواصل صراخك.. يخرج صوتها خشناً متعرجاً، متقطع الكلمات:

- سيبقى ابنك..ليطاردك في اليقظة..ليطاردك في الحلم.. سيبقى ليطارد نسلك، ويعتلي عرشك، ويصيروا عبيدا له.

لكلمات أخيه لون أبيض صافٍ، تحلق في يافوخه، يتوسل من قلبه أن تهبط على لسانه حرفًا وراء آخر، يقاوم ثقل لسانه، تتجمع الحروف في كلمة، الكلمة تطفئ المشاعل واحدًا وراء الآخر، تتحول لاقيس إلى حية تسيرعلى أربع، وأنت على ظهرها، تتراجع إلى الحجرة وأنفاسها تنفد:

- سيطارد نسلك.. سيطارد نسلك.. سيطارد نسلك.

يسود الظلام، يدوي صوت أخيه في صمت الصحراء، تتصدع الجدران، يتحطم الكرسي ساقاً وراء أخرى، يتلاشى. يعلو فحيح أفاع، عواء ذئاب، يخترق الصوت الأبيض زحام الأصوات:

- رتل معي.. رتل معي.

تتحول لاقيس إلى عجل ذهبي، وهما يواصلان الترتيل معا، توأمه يلقي بردته عليه:

- ستحميك، اجرِ من هنا.

يلملم نوح البردة على جسده، يسير حيث أشار أخوه الذي أردف:

- لا تلتفت خلفك رتل.. رتل.

صوتها يقاوم الموت:

- انظر خلفك..الذئاب والحيات تحاصر أخاك.

تصطك أسنانه من الفزع، كتاب السحر الذي جاء به يحترق صفحة وراء أخرى، يرتفع صراخ أخيه:

- لا تلتفت..لا تلتفت.

يتسمر نوح في مكانه، تنساب الدموع من عينيه كأن حروف كلمات أخيه من أبابيل، يهتز جسده، تحدثه باستعطاف:

- التفت.. أنت قتلت أخاك..انظر.

غاب نوح عن المكان،وقع توءمه على الأرض تنهشهه وحوش الظلام، عادت الصحراء بعباءة سوداء يداعبها صفير الريح، خرج نوح باحثًا عن الخلود وعاد بدونه، خرجت لاقيس لتغويه فتحولت لصخرة ذهبية، لتبقى عالقاً بين البشر والجن، تسللتُ لأحملك بعيداً، تعيش بين قطيع من الكلاب، بين الحين والحين أمر عليك.

أستسلم لرقصات الجني هفاف ويأخذ الكثير من تعاويذي وطلاسمي، ويترك بعضها ويرحل قائلاً:

- يوما ما سنلتقي.

***

أزفر بضيق، البنات يضحكن، يتراقصن فوق العنب، أخريات يجمعن عناقيد العنب، القمر ينظر من عليائه إليهن، أتكتفي بالنظر يا قمر مثلي؟ أم

ستخطف إحداهن، تؤنس وحشتك وتردها للأرض قبل طلوع الشمس، تحكي البنتُ لأترابها بما دار بينكما، تحكي وضحكاتهن خافتة كوميض البرق تحت المطر، أشير لهن بالانصراف.

دخان الذكريات، يتسلل إلى حجرتي، أعقد أصابعي خلف رأسي، أقرأ دخان الذكريات المسطور على سقف الحجرة.

***

جاء الطوفان، شيء لم يتوقعه بشر، جاء مباغتا للعالم الحضاري، جبال من الأمواج تبتلع اليابسة قطعة.. قطعةً، في داخل الأمواج إشعاعات صناعية تذيب المعادن، تفكك البنايات والجسور، تذيب جبال الجليد، الصخرة الذهبية ادفنها في قاع المحيط، الاشعاعات قسمتها إلى قطع، لا شيء سوى الماء وكبسولات اخترعوها تحتفظ كل واحدة بفرد منهم، أغلبهم ماتوا، قلة أفاقوا من غيبوبتهم، مقعدي يخرج من الماء، أجدف بمجدافين، أتجه إلى قصر نوح وأرضه، لا شيء سوى الموج، آلاف السنين أمست تحت الماء، أشم الهواء، أتوقف عن التجديف أصنع بكفي بوقًا مناديًا:

- أين أنت يا نوح؟ أتسمعني؟ أنا ابنك..ابنك داسم.. أين أبناؤك؟ أين ملايين البشر؟ سأجدك.. إنني أشم رائحتك.. أرضك كلها تحت قدمي.

أتحول إلى طائر، أحلق في الفضاء، ملايين الجثث تطفو على سطح الماء، أهبط فوق أحدها.

- يا نوح أجبني.

أنظر إلى السماء، وأردف:

- لو قتلتني هناك عند المذبح لخرجتُ جنيًا طيعًا، لمَ تركتني؟ أنا الآن سعيد بموت كل أبنائك، ستحتاج للنساء لتأتي بنسل جديد، نسل لن يعرف شيئًا عن الحضارات الإنسانية.. ازرع ما شئت من الأرض التي ينحسر عنها الماء، وعاشر النساء، لي مع نسلك شوطٌ جديدٌ، وفي يوم ما، سأعتلي عرشك.

أحلق بعيدا، مازال مقعدي يتأرجح على الماء.. تُمسكْ به فتاة ابنة أربعة عشر عامًا، زرقاء العينين، صفراء الشعر، بيضاء الوجه، ترتجف من البرد، أغطس في الماء حتى لا ترى تحولي، أخرج بشريًا، أسبح صوبها، أقعد على الكرسي، أمد يد العون لها، تمسك يدي؛ أهمس:

- هذا المقعد لن يغرق أبدا..لا تخجلي.. اجلسي على حجري، رويدًا رويدًا ستشعرين بالدفء.

أجدف باحثًا عن أرض أرسو عليها، ترشف قطرات المطر من راحتي، نصطاد السمك، أمسح على شعرها، تنام في حضني، أقرأ تعاويذي، لن تدري أنها ستنام عامًا كاملًا، يسكن الماء، أبصر جزيرةً، أصل إليها، لا حياة فيها، أحمل فتاتي، أدخل بها إلى كهف في قلب الجزيرة، تفيق لتراني بجوارها متدثرا بعباءتي، الظلام ثقيل الظل في الكهف، الأرض غير مستوية، قليل من ضوء النجوم يتسلل من الباب، لا شيء من الخفافيش أو الحيات، نسمات هواء عابرة تداعب جذوة نار، جالسٌ أنا بجوارها، تخطو صوبي:

- كيف جئت بنا إلى هنا؟

- هذا بيتك.

- بيتي!

- وأنا زوجك.

- زوجي!

أزعق فيها:

- اذهبي إلى حاشيتك، كلي طعامك.

تنتفض فزعة، تنصاع لأوامري، تتكور في ركن، أسنانها تقضم ثمارًا لا تعرفها، أقلب النار بعود حطب، أحدثها:

- طعمها لذيذ؟

تهز رأسها بالإيجاب، أنتصب واقفًا، ألتفت إليها، أسير على مهل، في منتصف الطريق، أنزع عباءتي، تشهق لرؤيتي عاريًا، أركع أمامها أحدق في عينيها، يرتجف الذعر فيهما، أخبرها بيقين:

- أنت لي.

أشق ثوبها، ألطمها، تسقط على ظهرها، قَاومتْ حتى أصابها اليأس، تستسلم.

أجدل لها حبلًا من الليف ثم أعلقها لتتأرجح، كلما اشتقت إليها، أرخي الحبل تدريجيًا، أقدم لها الماء والطعام، تقبل يدي:

- ارحمني.

أنقر رأسها بسبابتي:

- أنا أعرف ما في رأسك، انسي حياتك قبل الطوفان وتقبليني زوجًا، امنحيني صغيرًا، عندئذ سأتركك ترحلين أو تبقين كما تريدين، سأضعك في قارب وارحلي بعيدًا.. بعيدًا، كل ما أريده صغير.. طفل صغير يؤنس وحدتي على هذه الأرض.

- ألا تجد غيري؟

- أنا أحمد الله عليك..ثم أين أجد أخرى؟

فرحتُ لانتفاخ بطنها، الأيام تتشابه تماما، أرجع مجهداً من البحث عن الذهب،أُسخر قطيعًا من الذئاب لحراستها، تسألني:

- من أنت؟

أقبل جبينها، أمسح على شعرها:

- ناجٍ من الطوفان، كل الأرض غرقتْ تحت الماء إلا سبع جزر متناثرة ومتباعدةً، مازال بشر في كهوف أو في كبسولات جيلاتينية، من سينجو منهم؟ لا أعلم، على هذه الجزيرة شاهدتُ مئات الموتى مختلفي الأعمار،

تشملهم عباءة الذعر، العيون جزعة، الأطراف تدفع شيئًا مجهولاً، الصغارُ يتشبثون بأمهاتهم والأمهاتُ تتشبث بلا شيء، لا شيء.

صراخها يشق السكوت، أبتسم، ستضع مولودًا، يملأني القلق، أستقبل وليدي..مولود ذكر..ذكر.. أصبح لي ولد.. سأتوج ملكًا على أرضك يا نوح، حتى ذلك الحين سأتركك تنعم بالحياة، سأعرف مكانك مرة أخرى، سأطير باحثًا عنك، حين أعثر عليك سأقدم قربانا لأمي لاقيس، أتعرف من القربان؟ زوجتي، سأقيدها وأطعنها في قلبها طعنة واحدة؛ ستنساب دماؤها وتمتزج بالنار، سأترك ابني ترعاه الذئاب حتى أعود.

***

مع الفجر جاءت الشمس من المغرب، أرسل مجموعة من البنات إلى القلعة ليأتين بنهى أو خبر عنها، إنها هناك في كهفي، نفس الكهف الذي سجنتُ فيه، سحابات من دخان الذكريات.

***

وصلتُ إلى الجزيرة، الجزيرة التي تحيا عليها يا أبي خبأت الذهب في جدار أحد البيوت،أسير صوبك، تاركا صغيري في رعاية الذئاب، سيخرج مثلي، لا انتماء له إلا لي،يملك ما أملك من قوى فإذا أصابني الموت فهناك من سيقعد لابناءك ويسودهم، أمامك عشرات الرجال لا يعلمون شيئًا، أنت الوحيد الذي تعلم، تعلم مواعيد الزرع والحصاد، تعلم فنون الصيد والقتال، تعلم

النجارة والحدادة والرعي، تأبى أن يعرفوا إلا بشرط واحد؛ أن تملك نصف الجزيرة، صنعت حلقات العلم، زرعت العنب والتمر، تركت لهم القمح والبرسيم، خافوا من قتلك، إذا مت وفي صدرك علم، ربما يأتيهم الموت، تزوجت نساء بعدد أيام الأسبوع، كل ليلة تشاركك امرأة من زوجاتك الفراش، لم تشكُ امرأة منك، ما أخشاه علمك، بعض نسائك حبالى للمرة الثالثة، قلتَ للرجال لن تتزوج امرأة أخرى، قسموا النساء بينهم، تأملتُ الجزيرةَ، في جنوبها غابة كثيفة تعيش فيها أصناف من الحيوانات، متى وكيف؟ لا شأن لي بهذا، شأني بك أنت، يفصل بين الحيوانات وبينكم جبل سامق، تغيب قمته في ضباب كثيف، تتزين القمة بالجليد، الجليد يذوب على مهل، يسير الماء في أخاديد، يتجمع في عين تروي الزرع والحقول وأخرى تروي الغابة، عند الماء المتدفق من الجبل والشمس تهفو إلى الغروب، قطعت الطريق على نوح، تحولت لحية، استل سيفه، تحولت لأسد، أخرج سهما من كنانته ثم أطلقه في الهواء قائلًا:

– أنت خطيئتي.

أتحول إلى شكل إنسي.

– أنا ابنك.

– أنت حاقد، لو أرتضيت بقدرك لاعترفت بك

– دعني في أرضك.. عند عين الماء كل تعاويذي وطلاسمي، سأتركها هناك..سأكون بشريًا مثلك.

- لن تستطيع.

- سترى.

- بشرط ألا ترتكب مهلكة من المهلكات السبع.

- لا أعرفها.

- بل تعرفها.

تعاهدنا على ذلك، كتبَ المهلكات السبع على أوراق وعلقها على جذع شجرة قائلًا:

- لا تنس أن تمر على هذه الشجرة كل يوم.

أخفى أمر وجودي في الجزيرة عن زوجاته، صبرتُ من الشهور سبعة، تربصت بإحداهن.

كانت امرأة فارعة القد، تحمل على رأسها جرة ممتلئة بالماء، تسير صوب البيت القريب من الجبل، استبد بي الشوق إلى النساء، تسمع صوتًا خلفها، تستدير:

- ماذا تريد؟

- شربة ماء.

تشير بيدها صوب الماء:

- هناك.

أخطو إليها:

- شيخ تجاوز الثمانين، تحت ظله سبع نساء، وأنا أعزب.

- لم أرك من قبل.

- لن تريني إلا في الليل.

نظرات عيني قتلت قدرتها على المقاومة، تصطك أسنانها، يداي تلمسان جيدها، شفتاي الساخنان فوق شفتيها، أهبط الجرة برفق، تمددنا على قارعة الطريق، يدثرنا الليل، في نومها أجردها من ثيابها، صوتي في أذنها

«أحبك.. أحبك.. سآتيك مع اكتمال القمر.. لا تتأوهي.. فمازال في صلبي المزيد.. أرهفي السمع لصوتي الحنون..لا تخبري أحدًا.. لا تخبري أحدًا».

المرة الأخيرة كانت على فراش نوح، أزحف إليها، أخطو إليها.

«تعالي إلى حبيبك؛ أمتطي صهوتك» مثل دبيب النمل أسير من أصابع قدميها، ينفر جسدها، تلفظ بكلمة «جئت» أضغط فخذيها تجيب "على مهلك" أغرق في عالمها مستمتعاً بحروفها المتوهجة، بأنفاسها الساخنة، أشتدُ همجية وإيلامًا، تدس ساقها بين ساقيّ «مالك تعبت» أهز رأسي بالنفي، عريها تستره ظلمة الحجرة، السراج المعلق فوق الفراش يرسم خيطا رقيقا من الضوء على جسدينا، تغمض عينيها، أحتويها بعنفوان، تتأوه، أمسح شعرها، أقلبها يمينًا ويسارًا، تقول: «تعبت» يدي تجفف العرق عن وجهها،

تجلس القرفصاء، بالكاد تلفظ أنفاسها، ألتقط أنفاسي، سيف يخرج من غمد، إنها رائحته، ألتفت جزعًا «أبي» يقطع نصف إحليلي المنتصب، أبي يخصيني، غاضبًا قال «حتى لا تعاشر النساء مرة أخرى» على صراخي المتوهج من الألم تجري زوجه أمامه:

– لم أعرف أنه ابنك.

– هو يعرف أنني أبوه.

يقتلها، تسقط مضرجة في دمائها، يقطع رقبتها، أعوي على ذكورتي المهدرة أمام عيني، يركلني بقدمه مرات متتالية، أغيب عن الوعي، لا أدري كم من الوقت مضى عليّ وأنا موثوق اليدين، معلق في قفص من الحديد، يتأرجح فوق بركة الماء، جرحي كوي بالنار، الماء يتساقط على القفص ثم يسقط في البركة، أفيق من غيبوبتي، من بين أنيني:

– أبي.. المرأة رأس الخطيئة.

– ألم أنهَك عن الزنا؟ ابقَ هنا حتى تذوب جدائل الحبل فتنجو، أو تموت في مكانك.

– لا تتركني يا أبت..لا تتركني.

– لكل خطيئة عقاب.

– أنت لم تُعاقب على الزنا والسحر، ألم تزنِ مع لاقيس، ومارست السحر أملا في الخلود؟

– فعلتها وأنا من الجاهلين،التوبة منا والمغفرة من الله، حذرتك ولم تنتهِ، جئتَ لأبيك لتنتقم وتقتله وتتحكم في أبنائه.

استدار خارجا، أزعق فيه:

– لا تتركني.. لا تتركني.

– اخترتَ أن تكون إنسيًا فتحمل عذاب الإنس.

– لا تتركني..لا تتركني.

(٣)

ها هي ذي نهى مسجاة على الأرض في حجرة الولي، دافئة الجسد، مشجوجه الرأس، أسرعتُ إلى القلعة لأراها، تقول إحدى الفتيات:

– كانت تبحث عن شيء ما، وسقطت على الأرض، فشجت رأسها وماتت.

لا أهتم بقولها:

– ادفنوها.

أرجع إلى بيتي، الذكريات تطاردني، السؤال يطرح نفسه على رأسي؛ من السابع، هل أنا أم هي؟ أعلم أن الحياة لن تحمل لنا كل الإجابات، سيبقى العديد من الأسئلة بلا إجابة، هل سيظل هذا السؤال دون إجابة، هل مهمتنا في الحياة البحث عن الإجابات؟ لماذا خُلقت الأسئلة؟ الأسئلة تتلون من زمن لزمن ومن مكان لمكان ومن شخص لآخر. صوت فتاة يوقظني من شرودي، يواصل الدخان تصاعده من أرض الذكريات.

***

الليلة الأخيرة منقوشة في رأسي، العروس تفزع، خلف الستائر تتحرك ثلاثة أشباح صوبها، تتسمر في مكانها، إحدى الفتيات.

- لا تخافي.

تبسط الفتيات فراشاً على الأرض، يدخلن عاصي، يوقفنه بجوار الباب، معصوب العينين، يتبع يد إحداهن:

- تعال.. تعال.. آية تنتظرك.. آية تنتظرك.

تهمس إحداهن في أذن العروس:

- لا تخبري أحدًا حتى زوجك.

في بلاهة تتساءل:

- والبركة؟

توكزها في كتفها:

- المجنون أخوه، إذن البركة واحدة.

مذعورةً تتساءل:

- ربما يستيقظ.

تخرج من بين نهديها قارورة صغيرةً.

- لن يستيقظ قبل الفجر، قليلٌ من هذا يرقده حتى الصبح.

تضرب كتفها ضربةً خفيفةً:

- المجنون أكثر فحولة من الحاكم.

- ماذا تقصدين؟

- الحاكم صاحٍ مثل نائم، لولا زيت داسم الذي ينفخ في صورته قليلًا.

تقترب العروس من المجذوب، يلمس أصابعها، مرددًا بلهفةٍ:

- آية.. آية.

تتأمله العروس على الضوء الخافت، أثر الحريق على بدنه، أصابعه المتصلبة، عينه المطفأة، يخطو صوبها على صوت شخير الحاكم، يفجر أنوثتها شيئًا فشيئًا، تتفجر ينابيع العروس على دمدمات المجذوب، وتتحول إلى بحر من العسل، يسبح فيه، يركل أطراف موجه بذكورته، يضحكان، يلعبان، يتناجيان، و...

وكان ما قد كان.

***

تدخل الفتيات بين أيديهن امرأة، امرأة رأيتها في ساعات النهار، رسمت على باب دارها كفا من دمي، تحت جناح الليل أرسلتُ بعض الفتيات ليخطفنها، ثم يعطرنها ويزينها، ها هي ذي تحمل في يدها مبخرة، تدور في الحجرة مرتين متتاليتين، يستوقفها قولي:

- ضعي المبخرة جانبًا واخلعي ما عليك من ثياب وأرقصِ.

ألقي بسيفي بالقرب من الشرفة، أنقر على دُف، تتراقص المرأة، جذوة من نار تتراقص في صدري، مع كل قطعة تطير في الهواء وتقبل الأرض، قبل أن تطير قطعة أخرى، يتوهج جسدي، مع كامل عُريها أندفع صوبها بشوق مجنون، بجسد محموم، تصب ضحكاتها على جسدي المشتعل، يرتطم الوهج بجدار عجزي، تتحسس جسدها وتتأوه، تناديني أنوثتها، لا شيء.. لا شيء.. أي جرم فعلته يا نوح؟ ألمح السخرية في عينيها، السخرية تتلألأ وتتلألأ، ستخبر الجميع أن هذا العرش يخصي حكامه، نحن شعب يحكمه الخصيان، سيرددون ذلك في السر والعلن، عجزي ساق من النار، الموت لا يستغرق الكثير من الوقت، أستل الخنجر، طعنة في قلبها الساخر، صرختها تشق الليل، تندفع بعض الفتيات إلى الحجرة، بين أيديهن قناديل، المرأة مسجاة على الأرض تقطر دمًا،عريها يطل عليّ، وهج جسدها يسكن شيئا فشيئا، الدهشة تسكن عينيها، أطل من شرفتي، صوتي يخربش السكون:

- احملنها إلى المقابر.

الفتيات لا يحركن ساكنا لموت المرأة، أعشقن الذل؟ في حركة خاطفة، أستدير شاهرًا سيفي، يحملنها إلى الخارج، المبخرة ترسل أبخرتها، تمتزج بأبخرة الذكريات، الأبخرة الساكنة في حجرتي، فترسم صورة هفاف، صوته يرن في فضاء الماضي.

***

صوته طائر خافت، يقف على ساق من سيقان سجني، يلقي لي بزجاجة خمر، يتدفق الحديث منه:

– أنا هفاف، أتذكرني

ألوذ بالصمت، يردف

– خارت قواي، كل ما أفعله الآن، سرقة البيض من ربات البيوت، أتفرج عليهن وهن يبحثن عنه، أضحك وأضحك، أو أدحرج كرة خيط أسفل فراش، فتنحني المرأة، أتأمل مفاتن جسدها، جميل أن تشاهدهن وهن تحت الماء، أو بين أحضان الرجال، إذا لعبت بي الخمر، أتحول في الليل إلى مجموعة أرانب تجري بين أرجل الصغار، أو حية تسقط على صدر إحداهن وهي تقضي حاجاتها فتجري صارخة، أنقلب على ظهري ضحكًا.

أقص له ما جرى مع والدي.

– أنت مسجون الآن في جسد إنسي، قل أين خبأت قدراتك، سآتيك بها، لتخرج وتقتل أباك، وتحتل مكانته هنا في الجزيرة.

– هناك عند عين الماء كل تعاويذي وطلاسمي.

يرشف بعض الخمر، يتحول إلى نسر طائر، يقف بعيدا عني:

– أبوك مات يوم سجنك، التعاويذ والطلاسم هديةً منك إلى شخصي الضعيف، إلى اللقاء يا صديقي، سأطير إلى جزيرة ابنك لأرعاه.

أصرخ ملء صدري:

– حتى أنت تسرقني يا هفاف؟! سأقتلك في يوم ما.

– والتعاويذ والطلاسم معي؟ أشك، تركتُ لك الخوف، خوف الآخرين منك.

يرفرف خارجًا.

مكثت في سجني بضع سنين، قفص معلق بين الأرض والسماء، قطرات من الماء، قليل من الثمر، مللت حساب السنين والأيام، مللت الجدران المتشابهة، مللت صوت قطرات الماء، مللت كل شيء حتى رائحة عرقي.

يأتي هفاف بين الحين و الحين يثرثر ويثرثر، ثم يرحل ، جاء قبل نومي يتكلم:

– مع الصبح سيأتي ابنك.. سيأتي ليقتل الجفاف الضارب في هذه الأرض منذ سنين.

حين أفقتُ لمحته يغادر الكهف على هيئة نسر، أسفل قدمي قارورة خمر، في اليوم الثاني زجاجة خمر أخرى وبعض الفاكهة ورسالة «ابنك جاء لينتقم من أبناء نوح وأحفاده.. عندما يفرغ منهم سيُخرجك من كهفك، أخبرته بقصتك..هفاف».

أستيقظ في اليوم الثالث، السنوات مرت أكثر مما أحصيتُ، مات نوح وله العديد من الأحفاد والأبناء، عاد ابني.. عاد من أجلي، سرقتني شهوة

الانتقام من رؤية ابني يكبر أمام عيني، تركته بلا أم أو أب، تركته في أرض لا يعرفها، أجرع الخمر مرة وراء أخرى في انتظار دخول ولدي، ولدي الذي أطلقوا عليه الغريب..هفاف، أنت جني طيب.. لكنك لص، سرقتني، حين تُقبل شفتاك زجاجة الخمر، تسري في عروقك نشوتها، تصبح أسيرًا لسحرها، تتراقص من نشوتها، يمكنك أن تخاطب الإله بلا خوف، يمكنك أن تبارز الموت وتقتله ثم تتولى أنت مهمته، ماذا أرى؟ القفص على الأرض! الباب مفتوح، أخرج في حذر، أحمل سيفًا، الشمس تداعب عيني، أسير بين المقابر، أعبر النهر، صمتٌ ثقيل.. هواءٌ ساخن.. رياحٌ ترفض وجودي.. ماذا جرى؟ ماذا جرى؟ صوتٌ من خلفي:

- تأخرتَ.

ألتفتُ، هفاف في صورة ثعبان يردف:

- رأيتُ كل ما جرى.

يزفر في أسى ثم تكلم:

- لن تجد ما تبحث عنه.. فلا عرش ولا ولد..في غفوتك ركع المعتصم على قدميه، رفع يديه إلى السماء، ابتهل إلى الله طوال الليل، لم أسمع ما قال، قبل الفجر بقليل اقترب منه بعض أتباعه، جاء رجل من هناك من أعلى الجبل، ضرب الأرض بين الجيشين فانشقت الأرض بأخدود عظيم، امتلأ بماء عذب وأصبح نهرا، التقى الجيشان، ما كاد الغريب يبصر الولي حتى

تقهقر عن الزحف، استغاث الغريب بك هامسا، صارخا مرات ومرات فلم تجبه.. قتل الولي ابنك.

يتحول هفاف لطائر، يحلق بعيدًا، يمتلكني الحزن على ولدي، يتساوى الموت عندي بالحياة، لا شيء يستحق الحياة، يأسرني عبيد، فليفعل ما يشاء؛ ماذا بعد موت أملي في الحياة ؟ لا أمل إلا بقتل كل أبناء نوح، سجن جديد، مقعد حجري، مقيد أنا عليه بالأصفاد والسلاسل، بيد زنجي أسود، يزين أحدى أذنيه بقرط من الفضة يتراكم تراب السنين على جسدي، يا ربي أمهلني العمر لأجتث قوم نوح، خرير ماء، يأتيني هفاف بالطعام، ترى أيشعر بإثم السرقة، سأعفو عنه إذا ساعدني.. كيف والولي على قيد الحياة؟

(٤)

تمر الدقائق، تشبه الثواني، تشبه الساعات، أقنعت نفسي أني في سبات عميق، سيتوقف في يوم ما، صوت قارورة تتدحرج على الأرض، أفتح عيني، ذئب أبيض، يدفعها بإحدى قدميه الأماميتين، أخمن أنه هفاف، فلا يعلم أحد بعشقي للخمر سواه، أبتسم:

– ماذا جاء بك؟

– زجاجة خمر وقليل من الأخبار.

– ما عندك؟

– مات الولي، يحكم الآن عبيد أحد حواري الولي، في نهار اليوم دخلت سوق البر الشرقي، رأيت امرأة، عامرة الصدر، مستقيمة القد، ممتلئة الساقين، ليست بدينة، امتلكني الشوق، تمثلتُ إنسيًا وتبعتها إلى دارها قائلا:

– معي شراب، وفي حاجة لنديم وقدح.

في بيتها افترشنا بساط الحب، ولعبت بنا الخمر كما يلعب العاشق بمعشوقه فجاء غلام، خشيتُ أن ينكشف سرها، فأجهزت على الغلام ودفنته في صحن دارها، وودعتها، في سيري بين الأزقة العفنة، يفوح فيها رائحة بول البشر والحيوانات، رأيت في حانة رجالًا مجتمعين حول خمر غريب المذاق، تسامرت معهم، وأخبرتهم أن ذهبًا في القلعة، ذهب بعضهم إليها، جاء عبيد لقتلهم، قبل الشروق، كان التسعة معلقين في جذوع الشجر، عند أرجلهم تنوح النساء ويبكي الصغار، في ليلة أخرى سألوني عن الذهب فأجبتهم:

– كذب التسعة

أسرع بعضهم وعاد بالذهب، تركتهم يتقاتلون ويحرقون بيوت بعضهم بعضًا، لتعلم أن آل نوح لم يبقَ منهم إلا ستة.

يقذف الزجاجة في الهواءويلقفها، يسقيني جرعة خمر وراء أخرى ، أهز رأسي شاكراً، يتحول لطائر قبيح اللون، هجر المكان، شربت حتى الثمالة، أبصر نوح يستحم في نهر الولي، ينظر صوبي مبتسما «أبنائي الباقون سبعة.. سبعة» جاءني عاصي ليحمل الموت إليهم، تكحلت عيني بلون الليل، وحيد في البر الشرقي في بيت كئيب، أشم رائحة لحم محترق، أثاث محترق، هذه القرية التي جاءت بالذهب الملعون، ماذا ستفعل يا هفاف؟ صوته يهمس حولي: «لا تخف أنا هفاف.. سأحكي لك قصة لتنام.. اسمع.. لا، بل أصغ.. هناك.. بعيدا.. بعيدا جدا.. أبعد من بعيد جدا،جدارٌ بين جبلين عظيمين،

أهبط في حذر، صمت في ثقل الرمال، تهتز الأرض، ودوي انفجار، ينهار الجدار، يتدفق الرماديون، سود الأجساد، حمر العيون، قصار القامة، عرايا، لأصواتهم صرير يؤذي الآذان، أطير ثم أحط فوق صخرة من صخور الجبل الناتئة، يواصلون التدفق حتى الليل، على ضوء النار أراهم يتعاشرون، مع بصيص الفجر يواصلون السير، يقتلون من يلاقونه من البشر، يأكلون حقولاً كاملة، يحطمون البيوت على من فيها، يسيرون على الماء إلى أرض أخرى، أحدث نفسي، يا أيها الرماديون إلى أين تتجهون؟ لم يبقَ من الأرض بعد الطوفان إلا سبع جزر متناثرة كل من يعيش في جزيرة يعتقد أنهم هم الناجون فقط من الطوفان».

أحط فوق الأرض الجديدة، الموت يطلق عياله في كل صوب، لا شيء سوى عيال الموت، يجرجون الآهات الأخيرة.. الجثث في كل مكان.. البيوت خربة.. لا زرع ولا ماء، أتحرك في حذر، ربما لم تر الرماديين ولا تعرفهم، قالت جدتي منذ سنين:

– الرماديون قومٌ غضب الله عليهم وسَجنهم منذ ملايين السنين بين جبلين، لم يشعروا بالطوفان الأعظم ولا بأي شيء جرى على الأرض منذ سجنهم، سيخرجون للناس، متى؟ كيف؟ لا أعلم.

أطوف بالجزيرة، أمست أرضًا خرابًا، الرماديون يرحلون إلى أرض أخرى، بابٌ يفتح مع أنفاس الصبح، الأرق يسكن في العيون، يخرج الناس

من حصن احتموا به، يجمعون جثث القتلى، يحرقونها، يحرثون الأرض، في العيون دموع أطلقها الحزن، في الأصوات رنين الفزع، في الأيدي رعشة الخوف، يبذرون الحبوب، تهطل السماء بالمطر، تنطلق ضحكات الصغار من الصدور، أطير لألحق بالرماديين، وصلوا إلى أرض نوح، جثثهم متناثرة، يرعى فيها الدود، رائحتهم العفنة تملأ المكان.

(٥)

تدخل فتاة فرحة:

– مولاي أشرقت الشمس من مشرقها.

أفتح الشرفة، الشمس تتلألأ بنورها الذهبي، كل شيء عاد كما كان، الناس هنا وهناك، فتيات المعبد ينظفن بيتي، بعضهم يقدم أضاحي وفاكهة لله عند المذبح، عادت الحياة لسيرتها الأولى، صوت أعرفه:

أتراني يا داسم؟ انظر هناك على النخلة المقابلة لشرفتك.. أنا هفاف.. نعم ذلك الطير الأبيض.. أمس سرقت قليلًا من النبيذ وشاركت فتاة فراشها.. هي إلى الآن لا تعلم ما جرى، أحلم لذيذ أم واقع، بعد شهور ستعرف أنه واقع، ستسأل من هذا الرجل ولن تعرف.. أتعرف لما جئت ؟ آية الجمال ماتت (أشير لفتاة في حجرتي بقنص الطائر، تعرف ما أريد، تتسلل بحذر دون أن يلحظ هفاف المنهمك في الحكي) كان بيتها بالقرب من المعبد، في

كل ليلة يضع الكاهن لها صحاف طعام وقارورة ماء عند بابها، أختلس النظر مرة وراء أخرى، خيط رفيع من الدخان أنا، صوت نائم في أذنيه أنا، أناخيوط دخانية ترسم آية في رأسه عارية، نابضة، ساخنة، راقصة، سقط في عشقها، مثلما عشقها كل أبناء عمومتها، أنا الساحر الذي سحرهم بعشقها، حتى الفرسان الخمسة، أتعرف لماذا؟ لأني عشقتها، فعلت ما فعلت لتبقى عذراء و لايطأها رجل، تحولت لأسد لأتمسح بها، جميلة وهي حزينة فما بالك وهي تضحك! لماذا لم أعاشرها لأني أراها من الطهر ألا يطأها رجل، ترى في عيني الكذب، نعم أريدها، كنت أود أن أسمعها تقول أحبك بكل عشق ، أن تمنحني جسدها وكيانها وقلبها وكل خلجاتها بلا خوف أو خجل، أريدها في يقظتي وغفوتي، أريدها في كل وقت، لا عليك.

شرب الكاهن الخمر فلعبت برأسه، دفع الباب، انزعجت، قاومته، فضرب رأسها بعصاه، فسقطت على الأرض، قبل أن يتذوق عسلها، رأى شبحا عند الباب، يقترب منه رويدا رويدا، عيناه متأججتان غضبا، أتابع ما يجري في حذر- كنت غرابا على فرع شجرة قريبة - الشبح يضربه بيد أحاطت كل جسده، فسقط الكاهن مغشيا على الأرض، عندما أفاق لم يجد الشيخ تساءل مراراً عن ذلك الزائر، آية نائمة في قبرها أسفل فراشها، تساءل من حفر القبر ووسدها التراب، تحولت إلى أسد تقدمت صوبه في غضب فهرول خارجاً،عاد لمعبده حزينا، حين سألوه عن غيابها أجاب شاردًا «رحلت»، خرج الفرسان للبحث عنها في كل مكان،في الليالي المقمرة تزحزح آية

الفراش تخرج مسترسلة الشعر، في ثوب نظيف، تسير في الطرقات، تكف الكلاب عن النباح، يبتعدون عن طريقها، تطرق الأبواب، تضع الصدقات، تزمل المشردين، تدخل على المرضى، تمسهم مسا فيبرأون،مع الصبح، عاد الفرسان من رحلتهم و أحدهم مريض، زارته في ليلة حالكة؛ ترتدي عقدا من الخرز الملون، أخبرهم في الضحى والغيوم تملأ السماء، تساقط المطر، تحول إلى سيول، خرجوا يتبعون حبات الخرز المتناثر حتى قبرها، هناك لم يجدوها وجدوا باقي العقد، أنا وحدي رأيتها تسير فوق الماء بثوب نوراني شفيف، في منتصف البحر كان الولي ينتظرها، يسيران معا، الماء يرتفع بهما، يختفي خلف البدر. ساروا إلى المعبد بأضوائه المتوهجة، تقدموا غير مبالين بالمياه التي تجرف ما يقابلها، وجدوا الكاهن مشنوقا على أحد الأعمدة مبتل الثياب، ورقة مربوطة بين أصابعه أوشكت على السقوط، فتحوها وجدوا كلمة واحدة «آسف»، جلسوا في دائرة واحدة، أخرجوا سيوفهم ليسافروا إلى عالمها..قبل الغروب كانت خمس قوارير ممتلئة برمادهم، بجوار بيتها.

بضربة سهم خاطفة، نجحت الفتاة في صيده، أهبط إليه مسرعًا، أتأمله وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، يهمس في أذني:

– الحقد أكبر من الموبقات السبع، يا صاحب القلب الأسود.. الله غفور.. الله غفور.. الله غفور.

سكن الجسد، ركلته مرددًا:

– فلتذهب إلى الجحيم أيها اللص، أعلم أن ما سرقته لن يعود، أنا لا أترك ثأري.. عُدتَ لقدرك.. كأس نبيذ.. قارورة خمر.

دانت لي الأرض، أرض نوح.

حاكم الجزيرة أنا

الوارث الوحيد أنا

أنا الحي

أنا القادر

عبرتُ مئات السنين لأجلس هنا، لتشاركني النساء فراشي، مع الصبح يدفن في القبور، لن يعلم أحد سري، من سيملك الحكم بعدي؟

بعدي لا أحد

أنا الأخير

أنا الأخير

ارقصن يا فتيات، القمر يسكب نوره على أجسادكن العارية، فليتراقص الشوق في صدري، تعال يا نوح تعال، استيقظ من قبرك، تعال مطأطأ الرأس، اعترف بخطيئتك، قل للناس هنا إنني ابنك، ثم عد لأهل القبور قل لهم إنني ابنك،

أنا ابنك

أنا السابع

أنا الأخير

أنا سيد الأرض.

ينصرم الليل، منذ متى لا أعرف.. ماذا حدث أمس؟ آه هفاف.. قتلته.. هفاف مات..آه.. ألم برأسي، ماذا دهاني؟ صيحات ترصع الدقائق السائرة على مهل، أهبط لمعرفة الأمر، البيت خالٍ، أنادي الفتيات فلا مجيب، أخرج إلى الطريق، صخب وهرج، الناس تتخبط ببعضها بعضاً، الأمهات يأخذن بناتهن من البيوت صائحات "النار.. النار" أي نار! سحب خفيفة من الدخان، عيناي لا تدمعان، أعاني صعوبة في الرؤيا، أرتطم بفتاة، أقبض على ذراعها، شاحبة الوجه، غزيرة العرق، تشير إلى البر الشرقي:

– مع الفجر شاهد الصيادون نارًا تتقدم صوبهم، رجعوا إلى البر، يراقبونها وهي تقترب، تخللت المراكب، المراكب لم تحترق، تتجزأ النار وتتشكل على هيئة جنود مدججين بالسلاح، يطاردون الناس، يدفعونهم لعبور النهر، البيوت تنفض من فيها من بشر ودواب وطيور، الغريب أنها لا تحرقهم إلا من يحاول السير في الاتجاه الخاطئ، تركوا بيوتهم وحاجاتهم، توقفوا ليلتقطوا أنفاسهم، الجنود النارية تصبر عليهم، يهدأ الجزع ولا ينطفئ، تواصل دفعهم دفعًا، يعبرون النهر، أنظر بعضهم يعبر النهر.

تنفلت الفتاة هربًا، أبصر النار، تتزين بدخان، الغريب أن الدخان لا تدمع منه العين ولا يسبب الاختناق، كل ما يفعله حجب الرؤية، ربما لنسير على مهل، وربما ليخفي الذعر من المشهد الواضح، وحدي أرى مئات الناس يسيرون إلى الجبل، النار تنتشر في كل صوب، تطارد الناس، تدفعهم صوب الجبل، تمر بين أعمدة المعبد، بين البيوت، تتوقف أمامي وجها لوجه، أستل

سيفي، أحركه في الهواء، ساكنة، أتقدم تجاهها فلا تتراجع، أسير خطوات إلى اليسار تسير بمحاذاتي، الماء دواءها، أنظر حولي، قربة ماء، النار عبرت النهار وجاءت من البحر، أسكب الماء، تمر من خلالها إلى الجانب الآخر، أسرع لأهرب منها، تلحقني، تحرق يدي، أصرخ، أتلوى «يدي.. يدي.. يدي» لا تحرك ساكنًا، أستجمع قواي، أتراجع للخلف، تتقدم بنفس البطء، أدور بعيدا عنها، أحسها خلفي، أنا الوحيد الباقي على السفح، النار أضحت حول الجبل، الدخان يختفي في الضباب الثلجي للجبل، الدواب، الناس، حيوانات الغابة، الكل فوق الجبل، النار خلفي مباشرة؛ أحس سخونتها، لا تحرقني، أطيعها مرغمًا، أصعد الجبل، أبص على البر الشرقي، لا شيء محترق، البيوت خاوية.. النهر مازال يجري، الزرع مازال أخضر، الأحجار في مكانها، الذعر يسكن الوجوه، الهلع يدفعهم لأعلى، تسألني إحدى فتيات المعبد:

- مولاي، ألا نتصدى لها؟

أحرك يدي المتوهجة من الاحتراق؛فتردف:

- أتترك شعبك وعبيدك وفتياتك؟

- مالي عليكم من سلطان.

أتركها في ذهولها، أسابق الناس إلى القمة، لأول مرة يسكنني الخوف، أرفع يدي للسماء، يا ألله، منذ سنين لم أرفع رأسي للسماء، زاهية بلون أزرق،

تتزين بقليل من السحب، أسألها ألا تمطرين؟ تزداد حرارة المكان، صوت هفاف في رأسي "الله غفور..الله غفور" النار تحيط بالجبل من كل صوب، ترتفع ببطء، النار في محاذاتي، أحس وهجها، أتقي شررها المتطاير بيدي، تواصل صعودها إلى السماء، تتعلق بها أبصارنا، رؤوسنا تنظر

إلى السماء

إلى السماء

إلى السماء.

مصطفى سليمان

مسـودة أولى من فبراير ٢٠٠٢ إلى يونيو٢٠٠٦

مسـودة ثانية من فبرايـر ٢٠١٠ إلى يناير ٢٠١١

مسـودة ثالثة من مايو ٢٠١١ إلى سبتمبر٢٠١١

مسـودة رابعـة أغسـطس وسـبتمبر ٢٠١٦

مسـودة أخـيرة نوفمـبر و ديسـمبر ٢٠١٧